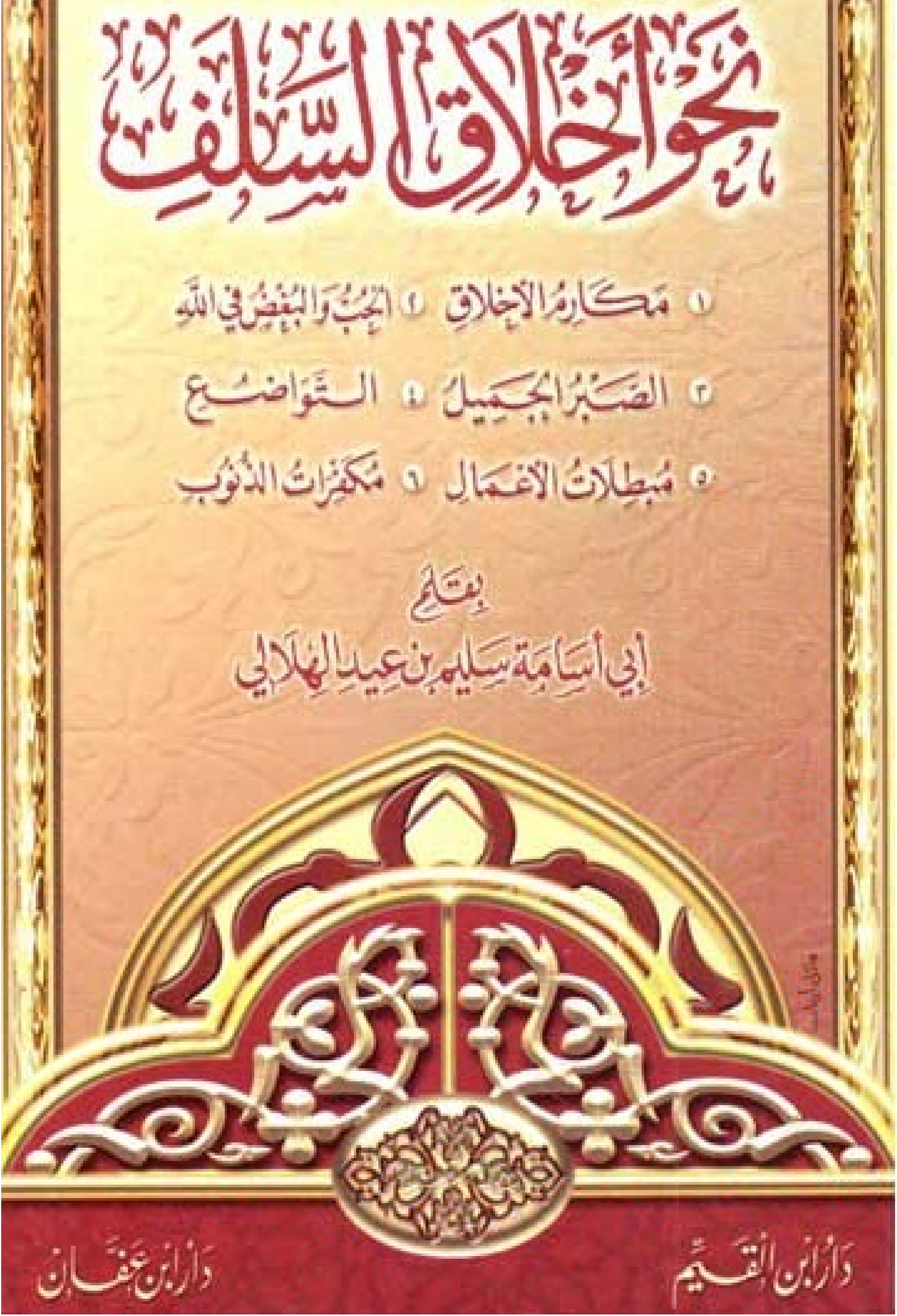

نحو أخلاق السلف
١ مكارم الأخلاق
٢ الحب والبغض في الله
٣ الصبر الجميل
٤ التواضع
٥ مبطلات الأعمال
٦ مكفرات الذنوب
بقلم
أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي
دار ابن القيم
دار ابن عفان


نحو أخلاق السلف

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ ـــ ٢٠٠٥ م

رقم الإيداع	٥٢٧٩ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي	977 - 375 - 053 - 1



دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف : ٤٣١٥٨٨٢ ـ فاكس : ٤٣١٨٨٩١

الرياض : ص . ب : ١٥٦٤٧١

الرمز البريدى : ١١٧٧٨

المملكة العربية السعودية

دار ابن عفان

للنشر والتوزيع

القاهرة : ١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت : ٥٠٦٦٤٢٠ ـ محمول : ٠١٠١٥٨٣٦٢٦

الإدارة ، الجيزة برج الأطباء أول ش فيصل

ت : ٥٦٩٣٦١٥ ـ تليفاكس : ٥٦٩٢٨٥٠ ـ ٣٢٥٥٨٢٠

ص . ب ٨ بين السرايات

جمهورية مصر العربية

E-mail:ebnaffan@hotmail. com

نحو أخلاق السلف

١ - مكارم الأخلاق
٢ - الحب والبغض في الله
٣ - الصبر الجميل
٤ - التواضع
٥ - مبطلات الأعمال
٦ - مكفرات الذنوب

بقلم
أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي


بسم الله الرحمن الرحيم

نحو أخلاق السلف (١)

(١) مكارم الأخلاق

في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة

من مشكاة النبوة

«إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد: فاعلموا - رحمكم الله وسدَّد خطاكم - أنَّ مكارم الأخلاق صفة الأنبياء والصدِّيقين والصَّالحين، وأنَّ سيِّئ الأخلاق وسفسافها سموم قاتلة تنخرط بصاحبها في سلك الشَّيطان وأمراض تفوت سعادة الأبد.

ولذلك بعث الله محمَّدًا ﷺ على فترة من الرُّسل ليتمِّم مكارم الأخلاق وصالحها؛ فجاء بأخلاق ربَّانيّة من حيث مصدرها وغايتها؛ فمصدرها الوحي الإلهيُّ: قرآن وسنَّة، وغايتها الله جلَّ جلاله.

ولقد تكلَّم النَّاس في مكارم الأخلاق متعرِّضين لثمرتها لا لحقيقتها، ولم يستوعبوا بل ذكر كلٌّ منهم ما حضره، لذلك رأيت - وقد لَقِست النُّفوس في هذه الأعصار المتأخرة - أن أشير إلى جُمل من أصول مكارم الأخلاق في ضوء الكتاب والسُّنَّة بفهم خير القرون، ومن الله وحده أطلب التوفيق والعون.

وأرجو أن يجد فيها المسلمون على اختلاف مواقعهم خير معين، وأهدى دليل يهدي للَّتي هي أقوم بالَّتي هي أحسن.

ولست بمدَّعٍ بلوغ الغايةِ بل قلت - إن أحسنت الظُّنون - خطوة في البداية؛ من وجد خيرًا؛ فليحمد الله على توفيقه وهداه، ولا ينسانا من صالح دعائه، ومن

وجد غير ذلك فلا يألُ جهدًا في النُّصح لي؛ لأن النُّصح شرعةٌ تعبدنا الله بها، وميثاق أخذه رسول الله ﷺ علينا.

اللهم تقبَّل منَّا، واجعلنا للمتَّقين إمامًا، ولا تخزنا يوم يبعثون؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ضحوة الخميس لأربعة عشرة ليلة خلت من صفر الخير

سنة ألف وأربعمائة وثمان من هجرة رسول الله محمد ﷺ

في عمان البلقاء عاصمة الأردن

١ ـ أنواع الأخلاق

الأخلاق تنقسم إلى ضربين: محمود ومذموم؛ فالمحمود صفة الأنبياء والمرسلين، وبها وُصِفَ خاتم النَّبيين محمد ﷺ، وبها تميَّز صالح المؤمنين، ومنها:

* الصِّدق في الحديث.

* والصَّبر عند المكاره.

* والحلم عند الجفاء.

* والإنابة عند الخطأ.

* والصَّفح الجميل عند الإساءة.

* والصِّلة عند القطيعة.

* والعفو عند الظلم.

* والتَّثبُّت في الأمور.

* والإحسان والتَّودد والرَّحمة والشفقة واللطف في المحاولة.

* وسيىء الأخلاق نقيضه.

٢ ـ مكارم الأخلاق

هذه الكلمة الطيبة من باب إضافة الصِّفة للموصوف، وكل شيء يشرف في بابه يوصف به، ولما كان الكرم لُباب الأخلاق الفاضلة وصفت الأخلاق به، وشَرُفت بالانتساب إليه.

وهذه الكلمة المباركة إذا وصف بها الإنسان؛ فهي اسم جامع لأوصافه وأفعاله المحمودة التي تظهر على سلوكه، ويعامل غيره بها.

وذلك لأن الخُلق هو ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب.

هذا هو الذي يسمى خُلقًا؛ لأنه يصير كالخلقة فيه.

وأما ما طبع عليه الإنسان فهو الخيم؛ أي: السجية، فيكون الخلق هو الطبع المكتسب، وذاك الطبع الغريزي.

قال الأعشى موضحًا هذا المعنى:

وإذا ذو الفضول ضنَّ على المو لى عادت لخيمها الأخلاق

أي: رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

* * *

٣ ـ مكارم الأخلاق من مقومات الأمم

اعلم أخَا الإيمان ـ أيّدك الله بروحٍ منه ـ أن الأخلاق الفاضلة من عناصر بقاء الأمم عزيزة قويّة.

ورحم الله أحمد شوقي القائل:

إنَّما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لذلك فالأخلاق تؤثر على قيام المجتمع سلبًا وإيجابًا؛ لأن الأخلاق أصل تقوم عليه أوامر الله في النّفس البشرية، فإذا طُوِّعت هذه النّفس على الخلق الكريم والسّلوك القويم، فإنها لا شك راغبة في تعظيم شعائر الله والتزام منهجه.

ومن أصدق من الله حديثًا، فهو القائل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

والأخلاق الكريمة صلب الشريعة، وجماع الدين الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، فلا بدَّ من تحقيقها في النَّفس المسلمة حتى تفلح وتنجح، وتقوم على أمر الله.

وحسبك أن تعلم في هذا المقام الكريم أن الله سبحانه وتعالى بيَّن آياته وفصَّلها للناس؛ لتستقيم على محاسن الأخلاق وصالحها؛ فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [طه: ١١٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ولما كانت هذه الحقيقة سنَّة كونية شرعية؛ فإن جميع المرسلين دعوا

أقوامهم إلى تحقيقها:

فهذا نوح عليه الصَّلاة والسلام أوّل رسول إلى النّاس يخاطب قومه؛ كما أخبر عنه الله جلَّ جلاله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٠].

وهذا هود عليه الصلاة والسلام ينذر قومه بالأحقاف قائلاً لهم؛ كما أخبر عنه الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٥].

وكذلك صالح، ولوط، وشعيب، وجميع النَّبيين عليهم الصلاة والسلام.

وربَّ قائل يقول: هذه آيات تحض على التَّقوى فما بال الأخلاق قد حُشِرت في معناها؟!

إن التَّقوى هي معين الأخلاق الفاضلة تمدها؛ فترى غضّة طرية في حياة المؤمنين.

لقد كان رسول الله ﷺ أحسن النّاس خلقًا، وأتقاهم لله، وأعلمهم به.

وبذلك تكون الأخلاق الطيبة هي التقوى التي يراها المؤمنون خيرًا ونماء وبركة في حياة المجتمع الرباني، وأصلها ثابت في قلب المؤمن الذي يغذيها بخشية الله في السر والعلن.

ولله در معروف الرصافي القائل :

هـــي الأخـــلاق تنبـــت كـــالنبـــات　　　إذا سقيـــت بمـــاء المكـــرمـــات

لذلك ينبغي على كل داعٍ إلى الله على بصيرة أن يولي قضية الأخلاق اهتمامًا كبيرًا ـ ولكن ليس على حساب العقيدة والفقه والمنهج ـ والمربي الناجح من أعطى كل ذي حق حقه .

❊ ❊ ❊

٤ ـ مكارم الأخلاق
ركن من أركان البعثة النَّبويَّة

ومما يؤكد هذه البدهية ويدمغ أوهام بعض الناس ـ الذين نصبوا أنفسهم دعاة لإعادة دولة الخلافة الرّاشدة ـ أن النبي ﷺ قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم (وفي رواية: صالح) الأخلاق**»[(١)].

---

(١) صحيح بشواهده ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد (ص٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٨١)، والحاكم (٢/ ٦٣١)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والقضاعي في مسند «الشهاب» (١١٦٥)، الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٢) من طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا.
قلت: هذا إسناد حسن.
وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، لكن محمد بن عجلان أخرج له مسلم متابعة.
وللحديث شاهد: أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٠٤) بلاغًا، ومن طريقة ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٣).
وله شاهد من حديث زيد بن أسلم مرسل.
وشاهد آخر من حديث جابر بن عبد الله، وفيه ضعف.
وفي الحديث فوائد ثَرَّة منها:
١ ـ أن الإسلام دين يمحو الباطل ويقر الحق، وهذا ظاهر في كلمة «لأتمم» فهو أقر العرب على مكارم الأخلاق التي عندهم، وأتمها بإزالة سيِّئ الأخلاق.
وبذلك يتبين أن وصف الإسلام بأنه ثورة باطل؛ لأن الثورات ما تذر شيئًا أتت عليه إلا جعلته خرابًا يبابًا سواء أكان صالحًا أم طالحًا.
٢ ـ أن العرب كانوا قبل البعثة من أحسن الأمم أخلاقًا؛ لأن عندهم بعض مكارم الأخلاق وهي التي ورثوها من شريعة إبراهيم عليه السلام وكانوا قد ضلوا بالكفر عن كثير منها؛ فبعث الله محمدًا ﷺ ـ وهو دعوة إبراهيم عليه السلام ـ ليتمم محاسنها وصالحها ببيان ما ضلوا عنه، وبما قضى به في شرعه.

حيث بيَّن رسول الله ﷺ أن إحدى مهماته هي إرساء قواعد مكارم الأخلاق، وإتمام صالحها، وبيان معاليها ألا يدل هذا كله على أن للأخلاق دورًا هامًا في إنشاء مجتمع الخلافة الراشدة وأثرًا بارزًا لاستئناف الحياة الإسلامية.

وحسبنا في هذه العجالة هذا الحديث الكريم لتوضيح هذه الحقيقة، ولكن ليعلم الموفق إلى اتباع سنن الهدى أن هذا البيان النّبوي هو تفصيل لآيات كريمة في كتاب الله المجيد، وهي قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

أليست التزكية تكون بمكارم الأخلاق والاستقامة على صالحها والتمسك بمعاليها؟.

ولأهمية الأخلاق في حياة المجتمع المسلم كانت ركنًا في دعوة أبينا إبراهيم ﷺ كما أخبر الله عنه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ـ١٢٩].

هذه أيها المسلمون الدعاة مِلَّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ووصيته لبناء أمة مسلمة، ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ـ١٣٢].

ألا فليتق الله رجال سفهوا أنفسهم واستخفوا أتباعهم؛ قرّروا في «نظامهم» أنَّ الأخلاق التي تزكيّ النَّفس البشرية لا تؤثر على قيام المجتمع بحال؛ لأن المجتمع يقوم على أنظمة الحياة، وتؤثر فيه المشاعر والأفكار، وأما الخلق فلا يؤثر في قيام المجتمع ولا في رقيه أو انحطاطه.

* * *

٥ ـ اقتران مكارم الأخلاق بالقيم الإسلاميّة العليا

المتتبِّع للمواضع التي ذكرت فيها مكارم الأخلاق في السُنَّة الصَّحيحة يتَّضح له بجلاء لا يقبل الشَّكَّ أن مكارم الأخلاق تبوأت مكانًا عليًا في الإسلام؛ فهي أخلاق المؤمنين، وأجلُّ منازل الصالحين، وعروة من أوثق عرى الإيمان، وباب سعادة المرء دنيا وآخرة.

فقد قرن الرّسول ﷺ بين مكارم الأخلاق وقيم الدِّين العُليا وأخلاقه المثلى، ومُثله الفضلى.

واقتران الشيء بالشيء أداة من أدوات البلاغة الرائعة في الدّلالة على المعاني وتثبيتها، من ذلك أنه قَرن مكارم الأخلاق:

١ ـ ٥ ـ بالكرم:

فقال ﷺ: «**إنّ الله كريم يحبُّ الكرم، ويحبُّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها**»[1].

وقال ﷺ: «**إن الله كريم يحبُّ الكرماء، جواد يحبُّ الجودة، يحب معالي**

---

(١) صحيح ـ أخرجه الحاكم (١/ ٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٥ و٨/ ١٣)، وابن حبان في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق ومعاليها» (ص٣).
قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه شيخنا في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٧٨).
قلت: وهو كما قالا.
والسفساف: الأمر الحقير الرديء، وهو ضد المعالي والمكارم، وسميت الأخلاق المذمومة: سفساف لرداءتها، والتنفير منها والإضراب عنها.

الأخلاق، ويكره سفسافها»[١].

٢ ـ ٥ ـ بالجمال:

فقال ﷺ: **«إن الله جميل يحبُّ الجمال، ويحبُّ معالي الأخلاق، ويكره سفسافها»[٢].**

٣ ـ ٥ ـ بالجمال:

فقال ﷺ: **«إن الله تعالى جواد يحبُّ الجُود، ويحبُّ معالي الأمور، ويكره سفسافها»[٣].**

٤ ـ ٥ ـ بالمحبَّة الإلهيَّة:

فكل الأحاديث السابقة ربطت مكارم الأخلاق والقيم الإسلامية بالمحبة الإلهية، وذلك لأن حُبَّ الله لهذه الأشياء هو رأس الأمر الذي تتفرع منه جميع الأخلاق والفضائل والقيم.

* * *

(١) «صحيح الجامع الصغير» (١٧٩٦).
(٢) المصدر السابق (١٧٣٩).
(٣) المصدر نفسه (١٧٤٠).

النَّبيُّ محمّد ﷺ القدوة الحسنة في مكارم الأخلاق

كان النَّبيُّ ﷺ أسوة حسنة تتحرك بين الناس بمكارم الأخلاق يرونه قائمًا على إتمامها خير قيام حتى استحق أن يزكيه الله في كتابه ويشهد له؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وقد اختلفت عبارات أهل التفسير في تأويل هذه الآية، غير أن أعدل هذه الأقوال واصحها ما ذكرته أمُّ المؤمنين عائشة بنت الصِّديق الأكبر رضي الله عنهما لعندما سُئلت عن خلق زوجها رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»(١).

---

(١) صحح ـ أخرجه مسلم (٦/ ٢٥ ـ نووي)، وأبو داود (٢/ ٤٠)، والنسائي (٣/ ١٩٩)، والدارمي (١/ ٣٤٥)، وأحمد (٦/ ٥٤، ٩١، ١١١، ١٦٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٠٨)، والحاكم (٢/ ٤٩٩، ٦١٣)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٢٩/ ١٣)، وابن حبان (٤٧٦) من طرق متعددة عن سعد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها.
وله طرق أخرى:
١ ـ عن جبير بن نفير عنها ـ أرجه أحمد (٦/ ١٨٨)، وابن جرير (٢٩/ ١٣).
قلت: وإسناده حسن.
٢ ـ عن الحسن قال: سألت عائشة (وذكره) ـ أخرجه أحمد (٦/ ٢١٦).
قلت: وإسناده صحيح، وقد صرح الحسن بالسماع.
٣ ـ عن رجل من بني سوأة عنها ـ أخرجه ابن ماجه (٢٣٣٣).
قلت: إسناده ضعيف فيه رجل مبهم.
٤ ـ عن قتادة قال: سألت عائشة (وذكره) ـ أخرجه ابن جرير (٢٩/ ١٢ـ١٣).
قلت: إسناده منقطع؛ لأن قتادة لم يدرك عائشة.
٥ ـ عن يزيد بن بابنوس عنها: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٢/ ٣٣٦ ـ تحفة الأشراف)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٠٩)، والحاكم (٢/ ٣٩٢).
قلت: إسناده فيه ضعف.

ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سَجية له، وخلقًا تطبعه، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم فلم يذكر خلق محمود، ونعت جميل، إلا وكان للنّبي ﷺ الحظُّ الأوفر لأنه ﷺ لم تكن له همَّة سوى الله تعالى، فاجتمعت فيه مكارم الأخلاق التي أرسل لإتمامها.

وبهذا يتبيّن أن الخلق العظيم الذي وصف به الرسول الكريم محمد ﷺ هو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به، ونهى عنه مطلقًا، حتى صارت المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله ويرضاه، واجتناب ما يبغضه ويكرهه بطيب نفس وانشراح صدر.

* * *

النَّبيُّ محمَّد ﷺ حريصٌ على مكارمِ الأخلاق

كان رسول الله ﷺ حريصًا غاية الحرص على مكارم الأخلاق وصالحها.

ومن شدة حرصه لذلك وتطلبه كان دائم الابتهال إلى الله أن يهديه لها، ويثبته عليها.

قال ﷺ: **«اللهم اغفر ذنوبي وخطاياي كلها، اللهم أنعشني واجبرني، اللهم اهدني لصالح الأعمال والأخلاق؛ فإنه لا يهدي لصالحها، ولا يصرف سيئها إلا أنت»**(١).

وكان ﷺ يلجأ إلى الله مستعيذًا من سيىء الأخلاق ومنكراتها وسفاسفها.

قال ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء»**(٢).

---

(١) حسن ـ أخرجه الحاكم (٣/ ٤٦٢)، والطبراني في «الصغير» (١/ ٢١٩) من طريق محمد بن الصلت ثنا عمر بن مسكين عن نافع عن عبد الله بن عمر عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعًا.
قلت: هذا إسناده ضعيف؛ لأن فيه عمر بن مسكين.
وله شاهد من حديث أبي أمامة الباهلي ـ أخرجه ابن السني «في عمل اليوم والليلة» (ص٣٩ـ٤٠).
قلت: إسناده فيه ضعيف؛ لأن فيه علي بن زيد بن جدعان.
وبالجملة؛ فالحديث حسن بمجموع الطريقين، والله أعلم.

(٢) صحيح ـ أخرجه الترمذي (٣٥٩١)، والحاكم (١/ ٥٣٢) من طريق أبي أسامة ثنا مسعر عن زياد بن علاقة عن عمه (وذكره) مرفوعاً.
قلت: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وعم زياد بن علاقه هو قطبة بن مالك رضي الله عنه صاحب النبي ﷺ.

فيا إخوتي في الله لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛ الزموا مكارم الأخلاق التي جماعها أن تصلوا من قطعكم بالسلام والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له، وتعطوا من حرمكم، وتعفوا عمن ظلمكم في دم أو مال أو عرض.

واعلموا أحبائي في الله: أن بعض هذه الأمور واجب، وبعضها مستحب.

اللهم إنا نسألك من خير ما سألك نبيُّك محمَّد ﷺ، ونعوذ بك من شرِّ ما استعاذ بك منه نبيُّك محمَّد ﷺ.

ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان والعلم والعمل الصالح، ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا.

* * *

٨ ـ الأخلاق النَّبوية المعطرة في الآيات القرآنيَّة المطهرة

منَّ الله على عبده ورسوله محمَّد ﷺ بتوفيقه إلى مكارم الأخلاق، ثم أثنى عليه ونوَّه بذكر ما يتحلى به من جميل الأخلاق في آيات كثيرة، وهاك بعضها:

١ ـ ٨ ـ الخلق العظيم:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولقد أكَّد الله سبحانه وتعالى هذه الصفة بثلاثة أشياء: بالقسم عليه بالقلم وما يسطرون، وتصديره بأن، وبإدخال اللاّم على الخبر، وكلها أدوات لتأكيد الكلام.

٢ ـ ٨ ـ لين الجانب:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

هذه الآيات خُلق محمَّد ﷺ، بعثه الله به فلو كان سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنه، وتركوه ولكن الله جمعهم عليه، وألان جانبه لهم تأليفًا لقلوبهم.

وفي هذا بيان واضح أن لين الجانب، وخفض الجناح من أسباب تأليف القلوب، وتوحيد الصفوف.

قال المفضل الضَّبِّي:

وليس بفظٍّ في الأداني يؤمون جدواه ولكنه سهل
وفظٌّ على أعدائه يحذرونه فسطوته حتف ونائله جزل

٣ ـ ٨ ـ الرأفة والرَّحمة على المؤمنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

لقد كان محمّد ﷺ في غاية الشَّفقة على أمّته؛ فهو حريص على المؤمنين أن يدخلوا الجنّة، يشق على نفسه أن يدخلوا جهنم، يعزُّ عليه ما يسبب لهم العنت، ولهذا أرسله الله سبحانه وتعالى بالحنيفية السمحة؛ ليلها كنهارها، شريعة كلها سماحة وسهولة، يسيرة لمن يسّرها الله عليه[١].

٤ ـ ٨ ـ الحزن على المشركين لتركهم الإيمان:

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقال العليم الحكيم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

كان رسول الله ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين حريصًا أشدَّ الحرص أن يدخل الناس في دين الله أفواجًا؛ لينقذهم من النار، لكن أكثر الناس أبوا؛ فيحزن الرسول ﷺ عليهم حزنًا شديدًا، ويتحسر عليهم.

---

(١) انظر: لزامًا رسالتي: «السماحة في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة».

فينزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات مسلِّيًا نبيَّه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه.

فلا تهلك نفسك يا محمَّد ﷺ غضبًا وحزنًا وجزعًا عليهم، وإنما تبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها.

هذه الصفات البارزة في شخصية الرسول ﷺ أثبتها الله في كتابه المجيد، آيات تتلى آناء الليل وأطراف النَّهار؛ لتكون نبراسًا لمن اتخذ محمَّدًا أسوة حسنة في الدعوة إلى الله على بصيرة؛ فورث عنه مكارم الأخلاق.

هذه الشمائل النبوية هي مقومات ودعائم مجتمع الصحابة الذي رفع قواعده محمد ﷺ.

هذه الأخلاق النبوية هي التي ألَّف الله بها بين الأعداء فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا.

فيا أحبائي في الله ويا إخوتي في الإيمان بمثل هذه الصفات تخلَّقوا، وبها اعملوا، وفي ميدانها تنافسوا.

❊ ❊ ❊ ❊

٩ ـ الصَّحابة رضي الله عنهم يصفون أخلاق النَّبيِّ ﷺ

لما بعث الله جلَّ جلاله محمَّدًا ﷺ إلى الثَّقلين بالهدى ودين الحقِّ زاده بسطة في هذه الأخلاق الحميدة حتى بلغ الكمال البشري .

وقد اختار الله لنبيه أصحابًا هم خير قرون هذه الأمّة المحمّدية التي هي خير الأمم ؛ بلَّغوا دعوته ، وحفظوا سنَّته ، وورثوا عنه ﷺ مكارم الأخلاق ، ونقلوها لمن بعدهم ، حتى جاء رجال صنعهم الله على عينه ، وغرسهم بيده ، واستعملهم بطاعته ؛ فدونوا هذه الدُّرر الثمينة بواسطة السّلاسل الذَّهبية المتَّصلة .

وقد اعتنى هؤلاء الجهابذة بتدوين سنة النَّبيِّ ﷺ عمومًا وبما يتعلق بأخلاقه ومزاياه خصوصًا ؛ فمنهم من عقد لها أبوابًا ضمن مؤلفاته ، ومنهم من أفردها بالتصنيف والتأليف ، وأورد فيها كل ما يتصل بخوفه ﷺ من الله ، وخشيته ، وجوده ، وكرمه ، وإيثاره ، وحيائه ، ووفائه ، وصدقه ، وأمانته ، وتواضعه ، وشكره ، وصبره ، وحلمه ، وعفوه ، وصفحه ، وشجاعته ، وعدله ، وزهده ، وقناعته ، وصلته للرحم ، وكثرة تبسمه ، وعفته ، وغيرته ، إلى جميع آحاد حسن خلقه ﷺ .

وها نحن نكتفي بإيراد بعض أقوال أصحابه مثل زوجاته وَخَدَمِه الذين كانوا أقرب الناس إليه وألصقهم به .

١ ـ ٩ ـ قالت السيدة عائشة بنت الصِّديق وزوج النَّبيِّ ﷺ:

«لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا[١] ولا متفحشًا[٢] ولا صخَّابًا[٣] بالأسواق، ولا يجزي بالسَّيِّئة، ولكن يعفو ويصفح»[٤].

٢ ـ ٩ ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أفٍّ[٥] قطُّ، وما قال لي لشيء صنعته: لَم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لِم تركته؟ وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، ولا مسسْت خزًّا[٦] ولا حريرًا ولا شيئًا ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا قطُّ ولا عطرًا كان أطيب من عَرق النَّبيِّ ﷺ»[٧].

وفي هذه الأحاديث بيان كمال خلقه ﷺ، وحسن عشرته التي كان عليها؛ منها: ترك العتاب على ما فات؛ لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الفعل إذا احتيج إليه.

ولعل هذا الخلق النَّبوي يكون منارًا للدعاة إلى الله إذا رأوا من إخوانهم هفوة، وزلة قدم فلا يبتدرونهم بالعتاب؛ لأنه يذهب الأصحاب، ويفسد

---

(١) الفاحش: ذو الفحش في طبعه.

(٢) المتفحش: متكلف الفحش.

(٣) صخّاب: شديد الصوت.

(٤) صحيح ـ أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، والطيالسي (٢٤٢٣ـ منحة المعبود)، وأحمد (٦/ ١٧٤، ٢٣٦، ٢٤٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق ومعاليها» (ص١١) من طريقين عن أبي إسحاق الشيباني قال: سمعت أبا عبد الله الجدلي يقول: سألت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ (وذكره).
قلت: وهذا إسناد صحيح.
ولشطره الأول شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ـ أخرجه الشيخان وغيرهما.

(٥) كلمة تبرم وملال تقال لكل ما يتضجر منه.

(٦) ثياب مصنوعة من صوف وحرير.

(٧) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٥٦ ـ الفتح)، ومسلم (١٥/ ٦٩ ـ نووي).

الأحباب .

ولله در البهاء الزهير القائل :

مـن اليـوم تعـارفنـا ... ونطـوي مـا جـرى منـا
ولا كـان ولا صـار ... ولا قلتـم ولا قلنـا
وإن كـان ولابـدَّ ... مـن العتـب فبـالحسنـى
لقـد قيـل لنـا عَنكـم ... كمـا قيـل لكـم عنّـا
ومـن الأحسـن أن نـرجـع ... للـوصـل كمـا كنَّـا

❊ ❊ ❊

١٠ ـ مكارم الأخلاق دليل من دلائل النُّبوة وصدق الرِّسالة

كان الرّسول ﷺ قبل البعثة وحمل الرّسالة في الذّروة السّامقة من الأخلاق صدقًا، وأمانة، وكرمًا، وحلمًا، وشجاعة وعفة، وقناعة، وصلة للرحم، والتي من أجلها تبوأ مكانة الإجلال والاحترام بين قومه.

١ ـ ١٠ ـ وها هي زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها تصفه عندما أخبرها بنزول الوحي عليه ويقول: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرّحم، وتعين الكلّ، وتكسب المعدم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الدَّهر»(١).

بأصول مكارم الأخلاق وَصَفته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وبها استدلت على صدقه، وأن أمثاله لن يخزيهم الله أبدًا؛ فهو معهم ينصرهم ويعينهم.

وبذلك نجزم أن مكارم الأخلاق سبب في تأييد الله ونصره لعباده المؤمنين.

قال النووي رحمه الله:

«قال العلماء رضي الله عنهم معنى كلام خديجة رضي الله عنها أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل، وذكرت ضروبًا من ذلك، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٣ ـ الفتح)، ومسلم (٢/ ١٩٧ ـ ٢٠٤) نووي.

السّلامة من مصارع السّوء»[١].

٢ ـ ١٠ ـ وها هي قبيلته تشهد له بمكارم الأخلاق وصدق الحديث:

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤][٢] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصّفا فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمّد؛ فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان... يا بني فلان... يا بني فلان... يا بني عبد مناف... يا بني عبد المطلب، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[٣].

بمكارم الأخلاق يستدل الرسول ﷺ على صدق دعواه وصحة رسالته فلا جرم أن تكون مكارم الأخلاق وصالحها لُباب دين الإسلام.

* * *

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٢٠٢).

(٢) جاءت الآية في «صحيح مسلم» هكذا ﴿وأَنْذِرْ عَشِيْرَتكَ الأَقْرَبِيْن ورَهْطَك مِنْهُم المُخْلِصِيْن﴾ قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٣/ ٨٢): «فظاهر هذه العبارة أن قوله: ﴿ورَهْطَك مِنْهُم المُخْلِصِيْن﴾ كان قرآنًا أنزل ثم نسخ تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري».

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٥٠١، ٧٣٧)، ومسلم (٣/ ٨٢ ـ ٨٣ ـ نووي.

١١ ـ أخلاق الصَّحابة رضوان الله عليهم في القرآن الكريم

لا يشكُّ من له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد: أن أصحاب محمّد ﷺ الذين تبوءوا الدَّار والإيمان، وورثوا عن الرسول ﷺ مكارم الأخلاق ومعاليها، هم نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء.

١ ـ ١١ ـ الرَّحمة والرِّقة:

قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

هكذا يكون المؤمنون الكُمَّل يرأفون بالمؤمنين، ويرحمونهم، ويلينون لهم، متعاطفون متوادون.

يكون أحدهم متواضعًا لأخيه موطأ الأكناف، ضحوكًا بشوشًا في وجهه.

وبهذه الصفة الخلقيَّة العظيمة يكتمل بنيان مجتمع الصَّحابة الذي يشد بعضه بعضًا بالألفة والرّأفة والرحمة والرِّقة ولين الجانب وخفض الجناح للمؤمنين.

قال ﷺ: **«مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر»**(١).

قال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ٤٣٩):

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٣٨ ـ الفتح)، ومسلم (١٦/ ١٤٠ ـ نووي)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

«قال ابن أبي جمرة[١]: الذي يظهر أن التّراحم والتّوادد والتّعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف.

فأما التّراحم؛ فالمراد به: أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر.

وأما التوادد؛ فالمراد به: التّواصل الجالب للمحبّة؛ كالتّزاور والتّهادي.

وأما التَّعاطف؛ فالمراد به: إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف الثوب عليه ليقويه» ا. هـ ملخصًا.

قلت: التَّوادد سبب التراحم، والتّعاطف مظهر التَّراحم، وبذلك يكون الرسول الله ﷺ ذكر التراحم سببه وثمرته، وفي هذا دليل على ما أعطي لمحمد ﷺ من الفصاحة والبلاغة وجوامع الكلم، وحسبك دليل هذا التشبيه الفصيح حيث شبّه الرسول ﷺ المجتمع الإيماني الربّاني بالجسد الواحد؛ ليدلل على قوة وشائج التّواصل بين المسلمين، ومتانة أواصر أخوة المؤمنين.

٢ ـ ١١ ـ الغلظة على الكفار:

قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال جلَّ جلاله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣].

المسلم شديد عنيف على الكفّار يظهر العزّة من نفسه لهم، ويبدي الغلظة على خصمه وعدوه في الدّين.

---

(١) هو عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، وانظر قوله في كتابه: «بهجة النفوس» (٤/ ١٥٧ ـ ١٥٩).

واعلم أخا الإيمان أن الشِّدة لا تصدر إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وفي هذا دليل آخر يثبت أنه ليس المقصود في الدين قمع هذه الصفات بالكلية وإنما الاعتدال، ألم تر أن الله وصف المؤمنين فقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل الفاقدين الغيظ.

وفي هذا بيان أن المسلم يغضب إذا أصابه البغي وانتهكت حرمات الله، ولا يغضب لنفسه بل يعفو ويصفح ويغفر.

٣ - ١١ - الرُّجولة:

قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقال جلَّ جلاله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال عزَّ ثناؤه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الرجولة صفة كمال ترقى بالمجتمع المسلم إلى درجة الاستقامة والاستقرار؛ لأن العلاقة بين الذكر والأنثى تكون منظمة مرتبة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

ولينظر الشاك في هذه الحقيقة إلى واقع المسلمين المعاصر، فعندما استنوق الرجال طغت النساء، وكثر الخبث.

ولله در القائل:

ما كانت العذراء تبدي سترها ... لو كان في هذه الجموع رجال

نعم لقد كان أصحاب محمّد ﷺ رجالاً يريدون أن يتطهروا من أدران الجاهلية، ولم تلههم أموالهم ولا أولادهم ولا نساؤهم عن ذكر الله، ولكنهم لم

يكونوا فجاةً غلاظًا في ما بينهم بل كانوا رحماء بينهم، ولقد كانوا يتبادحون بالبطيخ فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال[١].

* * *

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٤١) بإسناد صحيح.
غريب الحديث.
يتبادحون: أي يتضاربون بشيء فيه رخاوة كالبطيخ.

١٢ ـ مكارم الخلاق
صفة المؤمنين الكمَّل الخُلَّص

قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[(١)].

---

(١) صحيح بشواهده ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وله عنه ثلاث طرق:
الأولى: عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عنه به.
أخرجه الترمذي (١١٦٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٠و ٤٧٢)، وابن حبان (١٩٢٦ ـ موارد)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (فقرة ١٧، ١٨)، و«المصنف» (٨/ ٥١٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٧٨)، والقضاعي في «في مسند الشهاب» (٢/ ٢٤٩)، وابن جميع الصيداوي في «معجم الشيوخ» (ص ٢٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٤٨)، والحاكم (١/ ٣).
وقال: «وهو صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي (!)
قلت: بل هو حسن؛ لأن محمد بن عمرو بن علقمة حسن الحديث؛ كما صرح بذلك الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢٨)، ولم يخرج له مسلم إلا متابعة؛ كما صرح بذلك الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ٦٣٧)، و «التلخيص على المستدرك» (١/ ٦).
الثانية: عن عمر بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عنه به.
أخرجه ابن حبان (١٣١١).
قلت: ورجاله ثقات غير المطلب؛ فهو صدوق كثير التدليس والإرسال، وقد عنعنه.
الثالثة: عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عنه به.
أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٥١٦)، و«الإيمان» (فقرة ٢٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١١٠)، والحاكم (١/ ٣).
قلت: وهذا إسناد حسن؛ لأن محمد بن عجلان صدوق أخرج له مسلم متابعة.
وبالجملة؛ فالحديث بهذه الطرق صحيح.
وفي الباب عن عائشة، وجابر بن سمرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس، وعبد الله بن عمرو، وعمير بن قتادة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عبيد بن عمر عن أبيه عن جده، وأبي ذر.
وبذلك يجزم الواقف على أحاديثهم أنها متواترة؛ كما بينت ذلك في تخريج «الوصية الصغرى» (٣٩ـ٤٦).

وقال ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا»[١].

وقال ﷺ: «أفضل المؤمنين أحسنهم خلقًا»[٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٥٦ ـ الفتح)، ومسلم (١٥/ ٧٨ ـ نووي) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) صحيح لغيره ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٥٤٠) بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وله طرق يرتقي بها إلى درجة الصحة؛ كما بينته في تخريج «الوصية الصغرى» (٣٩ـ٤٠).

١٣ ـ فضائل مكارم الأخلاق

١ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق من أعمال الجنَّة :

فهي من الأعمال المقربة للجنّة الموصلة إليها، المورثة الفردوس الأعلى.

قال ﷺ: **«أنا زعيم[١] ببيت في ربض[٢] الجنّة لمن ترك المراء[٣] وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنّة لمن ترك الكذب مازحًا، وببيت في أعلى الجنّة لمن حسن خلقه»**[٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل النّاس

---

(١) زعيم: ضامن.

(٢) ربض الجنة: أدناها، وربض المدينة ما حولها.

(٣) المراء: أصله من مَريب الناقة، إذا استخرجت ما في ضرعها، وهو: المنازعة في القول والعمل بقصد الباطل؛ فإن كان بقصد الحق؛ فهو جدال.

(٤) صحيح ـ لغيره أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، والمزي في «تهذيب الكمال» من طريق أبي الجماهر محمد بن عثمان قال: حدثنا أبو كعب السعدي قال: حدثنا سليمان بن حبيب عن أبي أمامة (وذكره).
قلت: وهذا إسناد حسن؛ لأن أبا كعب السعدي وهو أيوب بن موسى السعدي البلقاوي روى عنه أبو الجماهر ووثقه، وقال الحافظ في «التقريب»: «صدوق».
١ ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٢٩٠) وإسناده ضعيف؛ لأن فيه أبا حاتم سويد بن إبراهيم.
٢ ـ حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ١٦) وإسناده ضعيف.
٣ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (١٩٩٣) وإسناده ضعيف؛ لأن فيه سلمة بن وردان.
قلت: بمجموع ذلك يرتقي إلى درجة الصحة، والله أعلم.

الجنّة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل النّاس النّار؟ فقال: «الفم والفرج»[(١)].

٢ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق سبب في محبة الله جل جلاله لعبده:

قال ﷺ: **«أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا»**[(٢)].

٣ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق من أسباب محبّة الرسول ﷺ:

قال ﷺ: **«إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»**[(٣)].

٤ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة:

قال ﷺ: **«ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»**[(٤)].

---

(١) حسن ـ أخرجه الترمذي (٢٠٠٣)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١، ٣٩٢، ٤٤٢)، وابن حبان (١٩٢٣ ـ موارد) والبغوي في «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٧)، «شرح السنة» (١٣/ ٧٩ـ٨٠)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص ١٠)، والبخاري في الأدب المفرد» (٤٤٢) من طرق عن يزيد بن داود الأدوي عنه به.
قلت: وهذا إسناد حسن؛ فإن يزيد بن عبد الرحمن الأودي وثقه العجلي وابن حبان، وروى عنه جماعة.

(٢) صحيح ـ أخرجه الطبراني (٤٧١)، والحاكم (٤/ ٣٩٩ـ٤٠١) من طرق عن زيد بن علاقة ثنا أسامة بن شريك.
قلت: وهو صحيح.

(٣) صحيح لغيره ـ أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، والخطيب «في تاريخه» (٤/ ٦٣) من طريق مبارك بن فضالة ثني عبد ربه بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد حسن؛ لأن مبارك بن فضالة صدوق يدلس، وقد صرح بالتحديث.
وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه أحمد (٢/ ١٨٩) بإسناد صحيح على شرط الستة.

(٤) صحيح ـ أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، وأحمد (٦/ ٤٤و٤٤٨)، وابن حبان (٤٨١) وغيرهم من طريق شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن عطاء الكيخاراني عن أم الدرداء وأبي الدرداء عن النبي =

٥ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق تضاعف الأجر والثواب:

قال ﷺ: «**إن الرّجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النّهار**»(١).

وقال ﷺ: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصَّوّام القوّام بآيات الله عز وجل، لكرم ضريبته، وحسن خلقه»(٢).

٦ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق من خير أعمال العباد:

قال ﷺ: «**يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخفّ على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما**».

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «**عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فو الذي نفس محمد بيده ما**

= ﷺ قال: فذكره.
قلت: وهذا إسناد صحيح.

(١) صحيح ـ أخرجه أبو داود (٤٧٨٩)، والحاكم (١/ ٦٠)، وأحمد (٦/ ٦٤و٩٠و١٣٣و١٨٧) من طريق عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن عائشة مرفوعًا.
قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي (!)
قلت: وفيه نظر؛ لأن المطلب ليس من رجالهما، وهو يرسل ويدلس، وسماعه لم يثبت عن عائشة.
وفي الباب عن أبي أمامة، وأبي هريرة، وأنس رضي الله عنهم.
قلت: بالجملة؛ فالحديث صحيح.

(٢) صحيح ـ أخرجه أحمد (٢/ ١٢٧، ٢٢٠) من طرق عن ابن لهيعة أخبرني الحارث بن يزيد عن ابن حجيرة الأكبر عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات، وابن لهيعة وإن كان ساء حفظه إلا أن هذا الحديث رواه عنه عبد الله بن المبارك في الموضع الثاني، ورواية العبادلة عن ابن لهيعة صحيحة؛ لأنه سمع منه قديمًا كما بينته في رسالتي: «الحصون المنيعة فيمن صحت روايته عن ابن لهيعة»، وقد غفل عن هذا المنذري والهيثمي فأعلا الحديث.

عمل الخلائق بمثلهما»[١] .

٧ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق تزيد في الأعمار .

٨ ـ ١٣ ـ مكارم الأخلاق تعمِّر الدِّيار .

قال ﷺ : **«حسن الخلق وحسن الجوار يعمِّران الدِّيار ويزيدان في الأعمار»**[٢] .

* * *

(١) حسن لغيره ـ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٢و٥٥٤)، والبزار (٤/ ٢٢٠ ـ كشف الأستار) وغيرهما .
والحديث حسن بشواهده؛ كما وضح ذلك شيخنا في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٩٣٨) .

وفي الباب عن أسامة بن شريك، وحديثه صحيح .

(٢) صحيح ـ أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩) ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا محمد بن مهزوم عن عبد الرحمن بن القاسم ثنا القاسم عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها : «إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم و. . . » الحديث .
قلت : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .

١٤ـ شروط مكارم الأخلاق

علمت أخا الإيمان أن مكارم الأخلاق من أفضل القربات وأعظم الطاعات التي ينال بها العبد رضوان الله جلَّ جلاله ويحظى بمحبته ومحبة رسوله.

لذلك ينبغي أن تعلم شروط هذه العبادة لكي تتميز عن عادات خاوية لا روح فيها.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ـ رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ـ حدثنا: «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرِّجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُّنَّة**».

وحدثنا عن رفعها قال: «**ينام الرّجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكت**(١)**، ثم ينام النّومة فيبقي فيه أثرها مثل أثر المجل**(٢)**؛ كجمر دحرجته على رجلك فنفط منتبرًا**(٣)**، وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**».

«**ولقد أتى عليَّ زمان ولا أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلمًا رده عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانيًا رده عليَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا**»(٤).

---

(١) الوكت: سواد يسير يحدث مخالفًا للون الذي قبله.

(٢) المجل: هو التنفيط الذي يحدث في اليد نتيجة العمل بفأس ونحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل.

(٣) منتبر: مرتفع.

(٤) أخرجه البخاري (١١/ ٣٣٣و١٣/ ٣٨، ٢٤٩)، ومسلم (٢/ ١٦٧ـ١٧٠ـ نووي) وغيرهما.

إن هذا الرّجل الذي يوصف من قبل الناس بمكارم الأخلاق ليس عنده من الإيمان حبة خردل؛ لأنه تصنَّع أمام الناس، ولم يبتغ مرضاة الله، ولم يقتف أثر رسول الله ﷺ.

وهاك شروط مكارم الأخلاق لتحظى بالقبول وحبِّ الله والرّسول ﷺ.

١ ـ ١٤ ـ الإخلاص لله.

وهذا شرط في كل عمل وعبادة، وإلا كان صاحبه من الذين يظنون أنهم يحسنون صنعًا وهم في الحقيقة من الأخسرين أعمالاً.

٢ ـ ١٤ ـ الفقه.

وهو معرفة مراد الله ورسوله لموافقته.

قال ﷺ: «**خياركم إسلامًا أحاسنكم أخلاقًا إذا فقهوا**»(١).

* * *

(١) صحيح ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٤٣ـ٤٤)، وأحمد (٢/ ٤٦٧ و٤٦٩ و٤٨٢) من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

١٥ـ علامات مكارم الأخلاق

اعلم أخا الإسلام أن الأعمال الصّالحة تصدر عن الأخلاق الحسنة؛ فليتفقد كلُّ عبد صفاته وأخلاقه، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر، فإنه يحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له، فلو رُدَّ إلى الثَّدي لكرهه، ومن علم قصر العمر تحمّل مشقَّة السّفر ليستريح الأبد؛ فعند الصباح يحمد القوم السّرى.

ولكن ربما جاهد المرء نفسه على ترك سيِّئ الأخلاق وسفسافها، ثم ظن أنه بلغ المقصود واستغنى عن المجاهدة وليس كذلك، فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على مجموع صفات المؤمنين المذكورة في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة الصحيحة، فَوَجْدها علامة حسن الحلق، وفَقْد جميعها دليل سوء الخلق، وإن وجد بعضًا وفَقد أشياء فليشتغل بحفظ ما وجد وتحصيل ما فقد.

وقد وصف الرسول الكريم ﷺ المؤمن بصفات وأشار أنها علامات مكارم الأخلاق منها:

١ ـ ١٥ ـ احتمال الأذى:

عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية؛ فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمّد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك ثم أمر له بعطاء(١).

تأملوا رحمكم الله ما في هذا الخبر من ذكر ما أتى به من أخلاق الرسول

---

(١) أخرجه البخارى (١٠/ ٣٧٥، ٥٠٣ ـ فتح)، ومسلم (١٠٥٧).

الشريفة العليّة، وعشرته ـ لمن صاحبه ـ الكريمة الرضية، وحلمه وصبره على الأذى في النفس والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تألُّفه على الإسلام، ومن أولى بذلك ممن القرآن العظيم أدبه، ومُنزل الوحي الحكيم مُؤَدِّبُه.

لقد كان الرسول الكريم ﷺ القدوة في مكارم الأخلاق نبلاً ومجدًا وفضلاً وجدًّا، فأكرم بنفسه السّمحة الزّكية الأبية، وسجاياه السّهلة الرّضية، وعطاياه الفاضلة السَّنية.

اللهم فلك الحمد على توفيقك إيّانا لتصديقه، وهدايتك لنا به.

اللهم فأسعدنا باتباع سنته، والثبات على أثره، والتحلي بخلقه وأدبه.

٢ ـ ١٥ ـ حب الخير للمسلمين:

قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه [من الخير]**»[(١)].

من كمال خلق المسلم أن يحبَّ لأخيه من الخير مثلما يحبّ لنفسه، وكذا من الإيمان أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه، ولم يذكره إما لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه؛ فيدخل تحت ذلك، وإما لأن الشخص لا يبغض شيئًا لنفسه فلا يحتاج إلى ذكره[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٦ـ٥٧ـ الفتح)، ومسلم (٢/ ١٧ـ نووي) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.
وما بين المعكوفتين زيادة صحيحة عند أبي عوانة (١/ ٣٣) وأحمد (٣/ ٢٠٦، ٢١٥، ٢٨٩) من طرق عن قتادة عن أنس مرفوعًا.

(٢) قاله الكرماني في «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» (١/ ٩٥)، وأقره الحافظ في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١/ ٥٨)، وشيخنا الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١/ ١١٤).

١٦ـ أمور تعين على التَّحلّي بمكارم الأخلاق

إن إدراك حقيقة الأخلاق في الإسلام تعين العالم والمتعلِّم، وقد اختلف العلماء الرّبّانيون الذين يعلِّمون النّاس الخير في حقيقة الخلق، فذهب بعضهم إلى أنه غريزة، وذهب الآخرون إلى أنه مكتسب.

قال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٩):

«وقد وقع في حديث الأشج العصري عند أحمد والنسائي والبخاري في «الأدب المفرد» وصححه ابن حبان: أن النبي ﷺ قال: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**» قال: يا رسول الله قديمًا كانا فيَّ أو حديثًا؟ قال: «**قديمًا**» قال: الحمد لله الذي جبلني على خُلقين يحبّهما.

فترديده السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب».

ونقل النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ٧٩) عن القاضي عياض قوله: «والصَّحيح: أن منه ما هو غريزة، ومنه ما يكتسب بالتخلق والاقتداء بغيره، والله أعلم».

قلت: ما حكاه هذان العالمان هو الفصل في هذا الخلاف؛ فإن الأخلاق قابلة للتغيير فلو لم تكن تقبل التّغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف لا تقبل التّغيير ونحن نرى الوحوش تُستأنس، والفرس تُروّض، وكلب الصَّيد يُعلَّم، إلا أن بعض النفوس سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة.

واعلم أيّها الأخ الأصفى والصّديق الخالصة الأوفى: أن المطلوب من تهذيب الأخلاق الاعتدال الذي هو الوسط بين الإفراط والتّفريط.

لذلك فإن قمع الخلق الغريزي بالكلِّية لا يستقيم ومقاصد الشريعة السمحة؛ كيف وهذه الغريزة إنما خلقت لفائدة ضرورية في التّكوين الإنساني، فلو انقطعت غريزة الطّعام لهلك الإنسان، أو غريزة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب لم يستطع الإنسان دفع المكروه عن نفسه.

وهذه البدهيات في تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس وتقويم السلوك عُلِمت باستقراء الشريعة السمحة، وتفصيل ذلك:

أن المطلوب في غريزة الطّعام الاعتدال دون الشّره والتّقلل، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

والإنفاق خلق مطلوب وهو بين الإسراف والتقتير، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

والسخاء والكرم والجود وسط بين البخل والتبذير، قال جلَّ جلاله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وهناك ثمة أمور تعين على الاعتدال؛ دونك إيّاها:

١ ـ ١٦ ـ حمل النَّفس على مكارم الأخلاق؛ فإن النّفس قابلة لذلك إن روضت على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب:

ولله در أبي ذؤيب الهذلي القائل:

والنَّفس راغبة إذا رغبتها … وإذا ترد إلى قليل تقنع

وسر ذلك: أن النّفس البشرية كالطّفل يشبُّ على حبِّ الرَّضاع، ولكنه قابل للفطامة.

٢ ـ ١٦ ـ التشبه بأرباب الخصال الجميلة والأخلاق الحميدة:

فمن أراد تحصيل خلق الجود؛ فليتكلف فعل الأجواد من البذل؛ ليصير ذلك طبعًا له.

وكذلك من أراد التّواضع تكلف أفعال المتواضعين حتى تنعطف على قلبه صفة التواضع وخفض الجانب.

والقول واحد في جميع الأخلاق المحمودة؛ فإن للعادة أثر في ذلك إلا أنه لا ينبغي طلب تأثير ذلك في بضعة أيام، وإنما يحصل ذلك بالدوام، وللدوام تأثير عظيم، لأن قليل الطاعات دوامها يؤثر بسبب تعاطي أسبابها حيث تتأثر النفس وتغيّر من طباعها.

قال ﷺ: «**إنما العلم بالتَّعلم، والحلم بالتَّحلم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوق الشرَّ يوقه**»(١).

٣ ـ ١٦ ـ مصاحبة أهل الخير وقرناء التّقوى وإخوان الصّلاح:

اعلموا أحبائي في الله: أن الطّبع لصٌّ يسرق الخير، والشَّرَّ؛ فمن كان جليسه صالحًا تحلّى بالأخلاق الشّريفة الرَّضية، واستقام على الخصال الحميدة العليّة؛ لأن مادة حديثه الأقوال النَّبوية.

ويؤيِّد ذلك قوله ﷺ: «**الرجل على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»(٢).

فاطلب أخا الإيمان لنفسك صديقًا صدوقًا بصيرًا متدّينًا ونصِّبه رقيبًا على نفسك؛ ينبهك عن المكروه من الأخلاق والأفعال.

---

(١) حسن ـ أخرجه الطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه شيخنا حفظه الله في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٤٢).
قلت: وهو كما قال.

(٢) حسن ـ أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤)، وأبو داود الطيالسي (٢/ ٤٧ـ منحة المعبود) من طرق عن زهير بن محمد حدثني موسى ابن وردان عن أبي هريرة مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد حسن إن شاء الله.

وقد كان سلفنا الصالح يحبّون من ينبههم على عيوبهم ونحن الآن ـ وآسفاه ـ في الغالب أبغض الناس من يهدي إلينا عيوبنا .

وهذا دليل على ضعف الإيمان؛ فإن الأخلاق السَّيِّئة كالعقارب، ولو أن شخصًا حذّرنا من عقرب أو أفعى لتقلدنا له منَّة، والأخلاق السَّيئة الرّديئة أعظم ضررًا من الأفعى والعقرب كما لا يخفى .

فمن علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، وطلب النَّاصح الأمين الذي عزَّ في هذا الزمان وجوده؛ لأنه قلّ في الأصدقاء من يترك المداهنة؛ فيخبر بالعيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب .

قال الفقيه أمين الدين :

عليك بأرباب الصّدور فمن غدا جليسًا لأرباب الصّدور تصدّرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط فتنحط قدرًا من عُلاك وتحقرا

وأورد المقري في «نفح الطيب» (٥/ ١٩٠) في ترجمة أبي القاسم الشريف الحسني هذين البيتين :

عن المرء لا تسل وسَل عن كل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب ولا تصحب الأردى فتردى مع

واعلم أيها الأخ المحبُّ: أن من فقد الصَّديق الصّالح والصّاحب المخلص؛ فليستفد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه؛ فإن عين السَّخط تبدي المساوىء .

قال أبو حيان يوسف بن حيان النفري :

عداتي لهم فضل عليَّ ومنّة لا أبعد الرّحمن عني
هم بحثوا عن زلَّتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت

١٧ـ أحاديث لا أصل لها أو موضوعة في مكارم الأخلاق(١)

زعم بعض النّاس أن مكارم الأخلاق تثبت بالأحاديث الضعيفة؛ لأنها من باب الفضائل، وهذا الظَّنُّ مردود في غير هذا الوضع، ولكن الذي يثير المسلم غضبًا لله ورسوله أن يصبح هؤلاء القوم يكتالون الأحاديث الواهية من كل حدب وصوب حتى إنهم روجوا أحاديث لا أصل لها أو موضوعة أو ضعيفة جدًا، ودونك بعضها لتحذرها وتحذر منها لئلا يقع المسلمون في الكذب على رسول الله ﷺ.

١ ـ ١٧ ـ «سوء الخلق ذنب لا يغفر»:

لا أصل له: أورده الغزالي رحمه الله في «إحياء علوم الدين»(٣/ ٥٢).

٢ ـ ١٧ ـ «تخلقوا بأخلاق الله»:

لا أصل له: أورده ابن أبي العزّ الحنفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٢٠)، والسّيوطى في «تأييد الحقيقة العلية»(ق٨٩/ ١) دون إسناد أو عزو لأحد.

٣ ـ ١٧ ـ «إن أحسن الحسن الخلق الحسن»:

موضوع: «انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٧٦٨).

٤ ـ ١٧ ـ «سوء الخلق شؤم وشراركم أسوأكم خلقًا»:

---

(١) الأحاديث التي ليس لها أصل مأخوذة من كتابي: «سلسلة الأحاديث التي لا أصل لها وأثرها السيىء في الأمة».

موضوع: «سلسلة الحاديث الضعيفة والموضوعة» (٧٩٥).

٥ ـ ١٧ ـ «الخلق الحسن يذيب الخطايا؛ كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل؛ كما يفسد الخل العسل»:

ضعيف جدًا: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢).

٦ ـ ١٧ ـ «مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيِّده، فقسمها الله عز وجل لمن أراد السّعادة: صدق الحديث، وصدق البأس، وحفظ اللِّسان، وإعطاء السّائل، والمكافأة بالصّنائع، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، والتّذممُّ من الجار، والتذمُّم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء».

ضعيف جدًّا: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٧١٩).

* * *

نحو أخلاق السلف (٢)

الحُبُّ والبُغْضُ في الله

في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة

قبس من التنزيل

قال جل ثناؤه:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمدُهُ، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له. ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الحبَّ والبُغض في الله بابٌ عظيم من أبواب الخير في الآخرة، وسبب في الشُّعور بحلاوة الإيمان في الدّنيا.

وقد يظنُّ بعض النَّاس أنَّ الحبَّ والبغض من شأن القلوب، وأنَّ الإنسان لا يستطيع التحكُّمَ فيه، فكيف يُرغمُ على محبَّة هذا وبُغضِ ذاك؟!.

ومن المعلوم بالضرورة في الإسلام أنَّ القلب تابعٌ للعقيدة والإيمان؛ فمن آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، فلابدَّ أن يُحبَّ من يُحبُّ الله؛ ولذلك فالحبُّ في الله والبغض في الله واجبٌ على المسلم.

وقد حذَّرنا الله تعالى ذكره من التَّفريط في هذين الأمرين لئلا يحدث في الأرض فتنَةٌ وفسادٌ كبير كما جاء في خواتيم الأنفال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقد أرشدَنا الله جلَّ ثناؤه ورسوله ﷺ إلى سبيل الحبِّ والبغض في الله الذي إذا اتبعناه أفضى بنا إلى واحة فينانة وارفة الظِّلال من الإيمان والأمن.

ودونك أخا الإيمان بيانَ معالمها في ضوء القرآن الكريم والسُنَّة الصَّحيحة؛ لتستبين كالصُّبح للمُتحابِّين في الله المتواصلين في جلاله المتباذلين فيه؛ فتقوى أواصرُ مودتهم، وتتوثَّقُ عرى دعوتهم؛ فيكونون في الله إخوانًا،

ويجتمعون على منهج الله أعوانًا، ويعضون بالنَّواجذ عليه سُنَّةً وقرآنًا.

وأسألُ الله بحبيِّ له ولرسوله ﷺ ولمن أحبَّهما، أن يؤلِّف بين قلوب المسلمين على الدِّين الحقِّ، وأن يتقبَّلها مني بقبول حسن؛ فتكون للمتحابين في جلال الله إمامًا يهدي للَّتي هي أقوم بالَّتي هي أحسنُ.

وأرجو من كلِّ أخٍ غيور ناصح أمين إذا وجد خيرًا فليحمد الله، ولا ينسانا من دعوة صالحةٍ، وإنْ وجد غير ذلك فلا يألُ جهدًا في النُّصح لي؛ فإني أذن واعية، وعلى الله قصد السبيل.

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر رمضان المبارك
سنة ألف وأربعمائة وثمان من هجرة رسول الله محمد ﷺ.

في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن من بلاد الشام المحروسة

١ ـ ما هو الحبُّ والبغضُ في الله؟

الحبُّ هو الودادُ والمحبَّة، والبغض نقيضه، والمرء قد يحبُّ آخر لماله، أو جماله، أو حسبه، أو نسبه، أو مصلحة شخصية، أو مطمع دنيوي، أو عرض زائل.

وكل هذه الدَّوافع والأعراض ممقوتة في الإسلام الَّذي حدد دافع الحبِّ والبغض وهو الدين.

ولذلك فالمسلم لا يحبُّ المرء إلا لدينه الحقِّ، ولا يبغضه إلا لدينه الباطل.

قال ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّهُ إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النَّار**»[(١)].

ولذلك فالمسلم يحبُّ الأنبياء والأولياء والصّديقين والشُّهداء والصَّالحين؛ لأنهم قاموا بما يحبّ الله، فهو يحبُّهم لله، وهذا من تمام محبَّة المحبوب.

ويبغض الكفّار والمنافقين وأهل البدع والمعاصي؛ لأنهم فعلوا ما يكرهه الله، فهو يبغضهم في الله.

ومن فعل ذلك فقد أحبّ في الله، وأبغض في الله، وحسبه الله ونعم الوكيل.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٦٠ ـ الفتح)، ومسلم (٢/ ١٣ ـ ١٤ ـ نووي) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

واعلم أنَّ الحبَّ في الله والبغض في الله هو موالاة المؤمنين والبراءة من المشركين من وجوه منها :

أ ـ الولاء والبراء أصل ، والحبّ والبغض كمال .

ب ـ الحبُّ والبغض من لوازم الولاء والبراء ، وليس العكس .

* * *

٢ ـ لماذا الحبُّ والبغضُ في الله فقط؟

١ ـ ٢ ـ من تمام حبِّ العبد لربه ولرسول الله ﷺ أن يحبَّ ما أحب الله؛ فيحبَّ المرء لله، لا لغرض آخر، فمن أحب الأنبياء والصَّالحين لأجل قيامهم بمحبوبات الحقِّ لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره.

وكثير من النَّاس لا يرضى بالله وحده وليًّا وناصرًا بل يوالي من دونه أولياء، يحبّهم كحبّ الله ظنًّا منه أنَّهم يقربونه إلى الله زلفى، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك.

إنَّ التوحيد الخالص أن لا يتخذ من دون الله أولياء.

والقرآن والسُّنَّة مملوءان بوصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين وحبّهم فيه، فإنَّ هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون آخر، ومن لم يفهم الفرقان بينهما؛ فليطلب التوحيد من جديد، فإن هذا المقام جذر التوحيد، وقطب رحى الإسلام.

٢ ـ ٢ ـ إن الله سبحانه وتعالى برحمته جمع قلوب المؤمنين على طاعته، وألَّف بينها على منهجه؛ فاستحق سبحانه الشكر على هذه النِّعمة بأن يكون الحبّ فيه، والاعتصام بحبله المتين.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢ـ٦٤].

لقد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله، والتي لا تصنعها إلا هذه

العقيدة؛ فاستحالت هذه القلوب النافرة المتنافرة، وهذه الطّباع الشّموس إلى هذه الطّائفة المتراصّة المتآخية الذّلول بعضها لبعض، المحبّ بعضها لبعض، المتآلف بعضها مع بعض، بهذا المستوى الذي لم يعرفه التاريخ ولن تعرف له الأرض نظيرًا ولا شبيهًا.

إنَّ هذه العقيدة عجيبةٌ حقًّا، إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحبِّ، والألفة، ومودة القلوب، التي تَلين بيد جاسّيها، وترقق حواشيها، وتندي جفافها، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق، فإذا نظرة العين، ولمسة اليد، وخفقة القلب حقائق من التّعاطف، والتّعارف، والولاء والتناصر، والسماحة والهوادة، لا يعلم سرّها إلا من أَلّف برحمته بين هذه القلوب، ولا يجد مذاقها إلا هذه القلوب.

وهذه العقيدة الرَّبانيّة لم تزل تهتف بالبشرية بنداء الحبِّ في الله، فإذا استجابت لِمَا يحييها وقعت تلك المعجزة التي لا يعلم سرَّها إلا الله، ولا يقدر عليها إلا الله.

قال جلَّ جلاله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد ذكر الله سبحانه ركيزتين:

الأولى: الإسلام.

والثانية: الأخوة في الله، على منهج الله؛ لتحقيق منهج الله.

فهي إذن أخوة تنبثق من الرَّكيزة الأولى من التقوى، والإسلام، أساسها الاعتصام بحبل الله، وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من الحبال الكثيرة المتفرقة.

وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتُنافرة، وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع؛ فيصبحون بنعمة الله إخوانًا، ولا يمكن أن يجمع القلوب إلا الحبُّ في الله حيث تتلاشى كلُّ الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية الجاهلية، وينتظم الصَّفُّ تحت لواء الحقِّ الكبير المتعال؛ فترى قومًا تحابّوا بروح الله بينهم، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، ولا تجارة يديرونها.

وهكذا يشهد الواقع أن الأمة الربَّانية التي بناها رسول الله ﷺ على الحبِّ في الله والبغض في الله، لم تكن مجرد كلمات مجنحة، ولا أعمال مثالية فردية، إنما كانت واقعًا حيّاً شامخًا على هذا الأساس الثابت الذي لا يَقْدِرُ على تأليف القلوب هكذا إلا هو.

٣ ـ ٢ ـ إن دين الله سبحانه هو الذي يستطيع وحده أن يثبِّت الأقدام، ويربط على القلوب، ويجمع على كلمة التوحيد؛ لأنها سبيل توحيد الكلمة.

وأما العوارض الفانية، والمطامع الشخصية، والمصالح الدنيوية، والقيم الأرضية؛ فإنها تمنع ولا تجمع. وتخالف ولا تآلف، وتفرق ولا توفق.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

هذا هو صراط الله، وهذا هو سبيله... وليس وراءه إلا السُّبل المتفرقة التي تتفرق بمن يسلكونها عن البيضاء الواضحة.

وهذه هي الوصيَّة الربَّانيّة للبشر لعلهم يتقون؛ فالتّقوى هي التي تفيء بالقلوب إلى السّبيل الواضح، وتربط بينها برباط الحبّ والألفة والمودة، وإلا تحولت المودَّة إلى عداوة، والحبّ إلى بغض.

قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

نعم إنَّ عداء الأخِلاَّء لينبع من معين ودادهم الدنيوي حيث اجتمعوا على الشر، وكان بعضهم يملي لبعض في الضّلال، فاليوم يتلاومون، واليوم يُلقي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشرِّ، واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون من حيث كانوا أحباء يتناجون، ويومئذ يأكل الظَّالم الذي وضع الحُبَّ في غير موضعه يديه حسرةً، وندمًا، وأسفًا، ولات حين مَنْدَم.

قال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان ٢٧-٢٩].

ويصمت كل الأخلاء من حوله، ويروح يمد في صوته المتحسر ونبراته الأسيفة، فلا أحد يجيب.

لقد ضلَّ عنه كل حبيب؛ وخليل قريب؛ فيبدأ يعض على يديه، من النَّدم، والأسف، والأسى... ولا تكفيه يدٌ واحدة يعض عليها، إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة لذع النَّدم.

وبينما الأخلاء مشغولون في خصوماتهم وحسراتهم، يرفرف الأمن، والطّمأنينة، والسَّكينة على المتحابّين في جلال الله، والمتواصِلين في جلال الله، والمتناصِحين في جلال الله.

قال تعالى:

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨].

فاللهم ألِّف بين قلوبنا على منهجك، واجعلنا ممن يحبك، ويحب من يحبك، فإنا نعلم أنَّ المرء يُحشر مع من أَحب.

عن أنس بن مالك؛ أن رجلاً سأل النَّبيَّ ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟.

قال: «**ما أعددت لها**»؟.

قال: ما أعددت لها من كثير صلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسله.

قال: «**أنت مع من أحببت**»[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٥٧ ـ الفتح)، ومسلم (٢٦٣٩) وغيرهما.

٣ ـ معالم المنهج

اعلم أخا الهدى ـ أرشدك الله للحقِّ بإذنه إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ـ أن قاعدة الحبِّ والبغض في الله وحده لا شريك له، تحدد للعبد المؤمن جهة الولاء الوحيدة الفريدة التي تتفق مع صفة الإيمان وتنبثق عنه.

إن عبدًا لله حقًّا من يرضيه ما يرضي الله ورسوله محمد ﷺ، ويسخطه ما أسخط الله ورسوله.

وحسبه ما أحبَّه الله؛ فيهجر ما أبغضه الله؛ فيوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله.

هذا الَّذي ملأ الإيمان قلبه؛ فوجد له حلاوة وطراوة ونداوة.

فلا مجال للتحمل، أو التَّأول، ولا فرصة لتمييع المنهج الإسلامي؛ لأن المسألة في صميمها هي العقيدة، ومحلها الولاء لله، ورسوله، والمؤمنين، والالتقاء على منهج الله جلَّ جلاله والتَّفرُّق عليه.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال ﷺ: «**سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله: الإمام العادل، وشابٌ نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله: اجتمعا عليه، وتفرّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا؛ ففاضت عيناه**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٤٣ ـ الفتح) واللفظ له، ومسلم (٧/ ١٢١ ـ ١٢٣ نووي) من حديث أبي =

إنّ الالتزام دائمًا يكون بالمنهج الإسلامي الصَّحيح . . . بما شرعه الله، وتجسم قدوة حسنة في حياة رسول الله ﷺ هو المقياس وليس الالتزام بالأنساب أو الأشخاص، أو الجماعات، أو الأحزاب، أو المذاهب، أو الفرق، أو الحكومات، أو الشعوب.

إنَّ الخلل والعلل تسلل إلى الحياة الإسلامية من العنود والعدول عن هذا المقياس، أو محاولة اختلاسه من يد العبد المسلم . . . ومن ثم تكون العصمة الكاذبة التي تخلع على الأشخاص الَّذين أُلبسوا هالة التقديس، ووضعوا فوق النقص والنّقد، حيث تمد المسوّغات المضحكة المبكية رأسها، والتي وضعت لتصرفاتهم وأخطائهم التي تتناقض أصلاً ورأسًا مع ما يحبه الله ويرضاه، ويتبرأ منها المنهج الإسلامي الصحيح.

ومن هنا تبدأ مرحلة السّقوط حيث تبدأ عملية تَخْديم الأهداف الإسلامية الصَّادقة، والقيم الرَّبانية لا خِدمتها.

ولله درُّ القائل:

إنّـــي ســـأعمـــم تعميمًـــا — الحـــزب يحـــرم تحـــريمًـــا
يـــا ويـــح مصـــائـــب أُمتنـــا — إســـلام يخـــدم تنظيمًـــا

حينئذ تبدأ الأحكام تفصَّل على الأشخاص، والحيل تؤصَّل حتى تصبح لها منصفات.

ولا ينبغي للعبد المحب لله: الذي يحبُّ في الله، ويبغض في الله، ويعطي لله، ويمنع لله، ويقطع لله، أن يظن أن الدَّعوة إلى التزام المنهج الإسلامي الصّحيح في الولاء والحبِّ والبغض، وعدم التزام الأشخاص، والشارات، واليافطات، والأحزاب، والفرق، والجماعات، ارتداد إلى الفرقة، وبعثرة

= هريرة رضي الله عنه.

الجهود.

إنَّ هذا الأصل الذي ترتبط به علاقات المسلمين بعضهم ببعض ليس من الأمور الاختيارية إنما هو تصحيح لمسيرة المجتمع المسلم، وإلغاء للإقطاعات البشرية في حياة المسلمين، والتزام بالإسلام الذي ارتضاه لنا ربُّ العالمين دينًا وبَيَّنَهُ رسول الله ﷺ أتمَّ بيَان.

* * *

٤ ـ أهمية الحب والبُغض في الله

يتبوأ الحبُّ والبغض في الله العروة الوثقى في عقد الإيمان .

قال ﷺ : «**إنّ أوثق عرى الإيمان أن تحبَّ في الله ، وتبغض في الله**»(١) .

---

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه أحمد (٤ / ٢٨٦)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (١١٠)، والطيالسي (٢/ ٤٨ـ منحة المعبود) .
قلت : إسناده ضعيف فيه ليث بن أبي سليم، ولكن لا بأس به في الشواهد والمتابعات .
وللحديث شواهد من حديث عبد الله بن مسعود، ومعاذ، وأبي ذر، وعمرو بن الجموح .
١ ـ حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وله عنه طريقان :
الأولى : من طريق الصعق بن حزن أخبرني عقيل الجعدي عن أبي إسحاق السبيعي عن سويد بن غفلة عنه قال رسول الله ﷺ : يا عبد الله : «**أتدري أي عُرى الإسلام أوثق**»؟ .
قلت : الله ورسوله أعلم .
قال : «**الولاية في الله، والحب في الله، والبغض في الله**» الحديث .
أخرجه الطيالسي (١/ ٢٣ـ منحة المعبود)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥٣١)، و«الأوسط» (١١و ٢١ ـ مجمع البحرين)، و«الصغير» (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، والحاكم (٢/ ١٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢٧/ ٢٣٩ـ٢٤٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٤٣) .
قال الحاكم : «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبي .
قلت : وهو كما قال الذهبي .
الثانية : من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عنه به .
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٧)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٣٣٨) .
قلت : إسناده ضعيف؛ فيه بكير بن معروف صدوق فيه لين .
وبالجملة؛ فالحديث حسن بطريقيه .
٢ ـ حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .
أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٧، ٢٤٧ـ٢٤٨) .
٣ ـ حديث أبي ذر رضي الله عنه .

=

* * *

= أخرجه أحمد (٥/ ١٤٦) وغيره.
٤ - حديث عمرو بن الجموح.
أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠).
٥ - وفي الباب من قول مجاهد: أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١١١) بإسناد صحيح.
٦ - وفي الباب من حديث عبد الله بن عباس.
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧)، والبغوي في «شرح السُّنة» (١٣/ ٥٣) بإسناد ضعيف جدًا، لا يفرح به؛ فيه حنش، وهو: الحسين بن قيس الرجي، وهو متروك.
ويثبت الحديث بطرقه وشواهده دون حديث عبد الله بن عباس، والله أعلم.

٥ ـ الأسباب المقويّة للحب في الله

١ ـ ٥ ـ إخبار من تحب أنك تحبته في الله .

قال ﷺ : «**إذا أحبَّ أحدكم أخاه ؛ فليعلمه أنه يحبُه**»[١] .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن هذا البيان يورث الألفة بقاء، ويزيد المودة ثباتًا ؛ فقال ﷺ : «**إذا أحبَّ أحدكم أخاه في الله ؛ فليعلمه ؛ فإنه أبقى في الألفة ، وأثبت في المودّة**»[٢] .

قال البغوي رحمه الله في «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٦٧) : «ومعنى الإعلام : هو الحث على التودّد والتآلف ، وذلك أنه إذا أخبره استمال بذلك قلبه ، واجتلب ودَّه» .

٢ ـ ٥ ـ إفشاء السّلام .

اعلم يا عبد الله : أن السَّلام يُزيل الوحشة ، ويُذهب الدهشة ، حينئذ تلتقي القلوب في الله .

---

(١) صحيح ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٢)، وأبو داود (٥٢١٤)، والترمذي (٢٥٠٢ ـ تحفة) وغيرهم من طريق يحيى بن سعيد قال : ثنا ثور بن يزيد قال : ثنا حبيب ابن عبيد عن المقدام بن معدي كرب مرفوعًا .
قلت : وصححه الترمذي ، وهو كما قال .

(٢) حسن لغيره ـ أخرجه وكيع في «الزهد» (٣٣٧) بسند صحيح عن علي بن الحسين مرفوعًا .
قلت : فهو مرسل صحيح الإسناد .
وله شاهد آخر مرسل : أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٩١) .
وله شاهد آخر عن يزيد بن نعامة الضبي .
وقد حسنه شيخنا في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١١٩٩) بمجموع هذه الطرق .

قال ﷺ: «لا تدخلون الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم»[(١)].

٣ ـ ٥ ـ الهدية.

قال ﷺ: «تهادوا تحابّوا»[(٢)].

٤ ـ ٥ ـ تَخوُّلُ الزِّيارة.

اعلم أيها الأخ المحبّ: أن الإكثار من الزيارة مملّ، فإن ملازمة زياراته دائمًا تورث فتورًا، وبقدر الملازمة تهون عليه، وكذلك الإقلال مخلّ، ويقسي القلوب، لذلك زُر أخاك وقتًا بعد وقت.

قال ﷺ: «زر غبًّا تزدد حُبًّا»[(٣)].

ولله درُّ القائل:

عليك بإغباب الزيارة إنَّها إذا ... كثرت كانت إلى الهجر مسلكًا
إني رأيت الغيث يسأم دائمًا ... ويسأل بالأيدي إذا كان ممسكًا

وقال بعضهم:

أقل زيارتك الصديق ... تكون كالثَّوب استجده
وأَمَلُّ شيء لامرئ ... أن يزال يراك عنده

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٣٥ ـ نووي) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) حسن ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، والدولابي في «الكنى» (١/ ١٥٠ و٢/ ٧)، والبيهقي (٦/ ١٦٩) وغيرهم.
من طريق ضمام بن إسماعيل قال: سمعت موسى بن وردان عن أبي هريرة مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد حسن.
(٣) «صحيح الجامع الصغير وزياداته» (٣٥٦٢).

٥ ـ ٥ ـ القصد في الحبِّ والبغض.

قال ﷺ: «**أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما**»[١].

وهكذا تزداد الوسطيّة وضوحًا لتشمل كل مظاهر الإسلام حتى الشعور، والعواطف، والوجدان.

ولهذا قال عمر بن الخطاب: «يا أسلم لا يكن حُبك كلفًا ولا بغضك تلفًا».

قلت: وكيف ذاك؟.

قال: «إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضًا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك»[٢].

قال هدبة بن خشرم:

وأبغض إذا أبغضت بغضًا مقاربًا ... فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدنًا للخير واصفح عن الأذى ... فإنك راءٍ ما عملت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبًا مقاربًا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع

وقال النّمر بن تَولب:

أحبب حبيبك حبًا رويدًا ... فليس يعولك أن تصرما
وأبغض بغيضك بغضًا رويدًا ... إذا أنت حاولت أن تحكما

---

(١) «صحيح الجامع الصغير وزياداته» (١٧٦).
وقد أوعب شيخنا حفظه الله في بيان صحته في «غاية المرام» (٤٧٢)؛ فليراجع؛ فإنه نفيس.

(٢) صحيح ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢٢)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٦٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٦٥) من طريق معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عنه به.
قلت: وهذا إسناد صحيح.

٦ ـ ٥ ـ الحرص على الطّاعة وترك المعصية .

اعلم أخا الإيمان : أن الإيمان والعمل الصّالح سبب لمحبة الله لعبده ؛ فإذا أحبه كتب له القبول الحسن بين عباده .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم : ٩٦] .

قال ﷺ : **«إذا أحبّ الله عبدًا نادى جبريل : أن الله يحب فلانًا ؛ فأحبّه ؛ فيحبّه جبريل ؛ فينادي جبريل في أهل السّماء : أن الله يحب فلانًا ؛ فأحبّوه ؛ فيحبه أهل السّماء ، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض»**[1] .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٣، ١٠/ ٤٦١ـ الفتح)، ومسلم (١٦/ ١٨٣ـ١٨٤ ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٦ ـ فضائلُ الحبِّ والبُغض في الله

١ ـ ٦ ـ محبّة الله جلَّ جلاله للمتحابِّين فيه .

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه : «قال الله تعالى : حقّت محبتي للمتحابين فيّ»(١) .

وقال ﷺ : «أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى ؛ فأرصد الله له على مدرجته ملكًا فلما أتى عليه قال : أين تريد؟ .

«قال : أريد أخًا لي في هذه القرية . »

«قال : هل لك عليه من نعمة تربُّها؟»

«قال : لا ، غير إني أحببته في الله عزّ وجلَّ . »

«قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه»(٢) .

٢ ـ ٦ ـ المتحابّون في الله عزَّ وجلّ تحت ظلِّ عرش الرّحمن يوم لا ظلّ إلا ظلُّه .

قال ﷺ : «إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي»(٣) .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩) والحاكم (٤/ ١٦٩) وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .
قلت : وهو صحيح .

(٢) أخرجه مسلم (١٦/ ١٢٣ـ١٢٤) من حديث أبي هريرة .
غريب الحديث .
مدرجته : طريقه تربُّها : تقوم بإصلاحها ، وتنهض إليه بسببها .

(٣) صحيح مسلم (١٦/ ١٢٣ ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٣ ـ ٦ ـ المتحابُّون في الله على منابر من نور يوم القيامة .

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه : «قال الله عزَّ وجلَّ : **المتحابون في جلالي ، لهم منابر من نور يغبطهم النَّبيُّون والشهداء**»[(١)] .

٤ ـ ٦ ـ المتحابون في الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قال ﷺ : «**إن من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء**» .

قيل : من هم لعلنا نحبهم؟ .

قال : «**هم قوم تحابُّوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف النَّاس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢]**»[(٢)] .

٥ ـ ٦ ـ الحبُّ في الله سببٌ في حلاوة الإيمان .

قال ﷺ : «**من سرَّه أن يجد حلاوة الإيمان ، فليحبّ المرء ، لا يحبّه إلا لله**»[(٣)] .

---

(١) صحيح ـ أخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٣٦ـ٢٣٧) من طريق جعفر بن برقان، حدثنا حبيب بن أبي مرزوق عن عطاء بن أبي رباح عن أبي مسلم الخولاني : سمعت معاذًا (وذكره) .
قلت : وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات غير جعفر بن برقان؛ فإنه ثقة يضعف في حديث الزهري، وهذا ليس منها .

(٢) حسن ـ أخرجه ابن حبان (٢٥٠٨ ـ موارد) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
قلت : إسناده حسن .
وفي الباب عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، وغيرهم رضي الله عنهم .

(٣) حسن ـ أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٨)، والحاكم (١/ ٣ و ٤/ ١٦٨)، والبغوي في «شرح السّنة» (١٣/ ٥٢ـ٥٣)، وأنو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٠٤)، والطيالسي (٢٤٩٥)، والبزار (٦٣ ـ الكشف) وغيرهم من طريق يحيى بن أبي سليم عن عمرو بن ميمون عن أبي هريرة .
قلت : وهذا إسناد حسن رجاله ثقات غير يحيى بن أبي سليم وهو أبو بلْج الفزاري، صدوق =

٦ ـ ٦ ـ الحبُ والبغضُ في الله من كمال الإيمان.

قال ﷺ: «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»[١].

٧ ـ ٦ ـ الحبُّ في الله طريقٌ إلى الجنَّة.

قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السّلام بينكم»[٢].

* * *

= ربما أخطأ.

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه أبو داود (٤٦٨١) من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا.
قلت: هذا إسناد حسن، رجاله ثقات غير القاسم، وهو أبو عبد الرحمن الدمشقي؛ فإنه حسن الحديث.
وأخرجه الترمذي (٢٥٢١)، وأحمد (٣/ ٤٣٨ـ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس الجهني.
فالحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٣٥ ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧ ـ ماذا يفعلُ العَبدُ المسلم إذا أحبَّ أخاه في الله؟

١ ـ ٧ ـ الذهاب إلى بيته وإخباره.

اعلم أيها الأخ ـ أيَّدك الله بروح منه ـ أنّ المسلم إذا أحبَّ أخاه في الله؛ فينبغي أن يأتيه في منزله، ويعلمه بأنه يحبّه في الله.

قال ﷺ: «**إذا أحب أحدكم صاحبه؛ فليأته في منزله؛ فليخبره بأنه يحبّه لله عزَّ وجلَّ**»[(١)].

قال البغوي في «شرح السُّنّة» (١٣/ ٦٧): «وفيه أنه إذا أعلمه أنَّه محبّ له قبل نصحه فيما دلّه عليه من رشده، ولم يرد قوله فيما دعاه إليه من صلاح خَفِيَ عليه باطنه».

٢ ـ ٧ ـ الحرص على دوام الحبِّ في الله.

قال ﷺ: «**ما تحابّ رجلان في الله تبارك وتعالى إلاّ كان أفضلهما أشدُّهما حبًّا لصاحبه**»[(٢)].

---

(١) صحيح ـ أخرجه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (٧١٢) وعبد الله بن وهب في «الجامع» (ص ٣٦) من طريق ابن لهيعة ثنا يزيد بن أبي حبيب أن أبا سالم الجيشاني أتى إلى أبي أمية في منزله فقال: إني سمعت أبا ذر يقول: فذكره مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وابن لهيعة صحيح الحديث، إذا روى عنه العبادلة.

(٢) صحيح ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٤)، وابن حبان (٢٥٠٩)، والحاكم (١٤/ ١٧١)، والبغوي في «شرح السُّنة» (١٣/ ٥٢) من طريق مبارك بن فضالة حدثنا ثابت عن أنس وذكره مرفوعًا.
قلت: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، وقد صرح مبارك بالتحديث عند البخاري وابن حبان.

٨ ـ عوائقُ في طريق الحبِّ في الله

اعلم أيّها العبد المحبُّ: أن الحبَّ في الله رباط انتظم القلوب بنور الله، وظلّلهما بالتوادِّ، والتّراحم، والتّعاطف، والتزاور، والتّواصل في جلال الله جل جلاله؛ فإذا اجترح العبد أو أخوه ذنبًا؛ فإنّه يُغانُ على قلبه؛ فينقطع حبل الوصل مع قلب الآخر، فيكون الفراق عقوبة جزاء وفاقًا؛ لذلك الذنب.

قال ﷺ: «**ما توادَّ اثنان في الله عزَّ وجلَّ أو في الإسلام؛ فيفرق بينهما إلا ذنب يحدثه أحدهما**»(١).

ولذلك إذا أحسَّ العبد من أخيه جفاء؛ فليتفقد نفسه ابتداءً؛ إن وجدها اجترحت سيئة؛ فليَتُب سريعًا؛ ليستقيم له وُدُّ أخيه.

* * *

---

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٤) من طريق سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «فذكره».
قلت: هذا إسناد حسن، رجاله ثقات غير سنان بن سعد؛ فإنه صدوق له إفراد.
وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر: أخرجه أحمد (٢/ ٦٨)، وفيه ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ؛ لكنه يعتبر به.
وشاهد من حديث أبي هريرة: أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٠٢) بإسناد ضعيف.
وبالجملة؛ فالحديث صحيح بمجموع شواهده، والله أعلم.

٩ ـ ماذا يقول المسلم إذا أخبره أخوه بحبه له؟

إذا أخبر العبد المسلم أخاه أنه يحبه في الله، فليرد عليه قائلاً: أَحبك الذي أحببتني فيه.

عن أنس بن مالك قال: مرّ رجل بالنّبيِّ ﷺ وعنده ناس، فقال رجل ممن عنده: إنِّي لأحبّ هذا لله.

فقال النّبيُّ ﷺ: «**أَعْلَمته؟**».

قال: لا.

قال: «**قم إليه؛ فأَعْلِمه**».

فقام إليه؛ فأَعْلَمه.

فقال: أحبك الذي أحببتني له.

ثم قال: ثم رجع فسأله النبي ﷺ فأخبره بما قال.

فقال النّبيُّ ﷺ: «**أنت مع من أحببت، ولك ما احتسبت**»(١).

* * *

(١) صحيح ـ أخرجه أبو داود (١٥٢٥)، وأحمد (٣/ ١٥٠)، والحاكم (٤/ ١٧١) وغيرهم من طريق المبارك بن فضالة ثنا ثابت البناني عنه به.
قلت: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وقد صرح المبارك بالتحديث.
وأخرجه البغوي في «شرح السُّنة» (١٣/ ٦٦ ـ ٦٧) من طريق عبد الرزاق أنا معمر عن الأشعث ابن عبد الله عنه بالسياق الذي ذكرناه.

١٠ـ لوازمُ الحبِّ في الله

١ ـ ١٠ ـ أن يحبَّ العبدُ الخيرَ لأخيه كما يحبُّهُ لنفسه.

اعلم أيّها العبد المحبّ في الله: أنّ أدنى درجات المحبَّة في الله أن تحبَّ لأخيك من خير الدنيا والآخرة ما تحبُّه لنفسك.

ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا بأن تحبّ أخاك في الله؛ لأنّك لا تحبّ الخير لمن تكره، ولا يتصور أن تحب الخير إلا لمن تحب.

قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [من الخير]**»(١).

٢ ـ ١٠ ـ أن يتعهدَ العبدُ أخاهُ بالنُّصح.

من أحب أخاه في الله؛ فإنه يكره أن يرى أخاه في موطن لا يحبه الله، فإذا رأى ذلك منه سارع إليه يمحِّضه النُّصح، ويذكره بالله؛ ليطلب العفو والصفح من الله.

قال ﷺ: «**الدِّين النصيحة**».

قلنا: لمن؟.

قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٦ـ٥٧ـ الفتح)، ومسلم (٢/ ١٧ـ نووي) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وما بين معكوفتين زيادة صحيحة عند أبي عوانة (١/ ٣٣)، وأحمد (٣/ ٢٠٦، ٢٥١، ٢٨٩) من طرق عن قتادة عن أنس مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٣٧ ـ نووي) وغيره من حديث تميم الدّاريّ رضي الله عنه.

٣ ـ ١٠ ـ **الوصل والزيارة.**

قال ﷺ: «**زر غبًا تزدد حبًا**»(١).

وقال ﷺ: «**أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى؛ فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد**»؟.

قال: أريد أخًا لي في هذه القرية.

قال: «**هل لك عليه من نعمة تربُّها**»؟.

قال: لا، غير إني أحببته في الله عزَّ وجلَّ.

قال: «**فإني رسول الله إليك بأنَّ الله قد أحبك كما أحببته فيه**»(٢).

فعُلم من هذين الحديثين الشريفين: أن الزيارة من لوازم المحبة، ولكن ينبغي أن تكون وسطًا لا إفراط ولا تفريط، فإن الإفراط يورث الملل، والتفريط يجلب الجفاء، ثم القطيعة، نسأل الله العفو العافية.

❊ ❊ ❊

---

(١) مضى.
(٢) مضى.

١١ـ الأمورُ الموجبةُ للبُغضِ في الله

١ ـ ١١ ـ الكفر.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

هذا هو الميزان الدقيق للإيمان في النّفوس، إنه الانحياز النّهائي للصَّف المؤمن المتميز، والتجرد من كل عائق وكل جاذب، والارتباط في العروة الوثقى بالحبل الواحد.

فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولن يجمع إنسان في قلب واحد وُدَّين: ودًّا لله ورسوله والمؤمنين، وودًّا لأعداء الله ورسوله والمؤمنين؛ فإما حبّ أو بغض.

وهذا الأمر ليس بدعًا؛ إنه موصول بأول هذه الأمة الواحدة: أمة التوحيد، ومربوط بهذه القافلة الواحدة: قافلة الإيمان؛ فهو ممتد في الزمان، متميز بالإيمان، متبرئ من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة.

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وأسوة ممتدة على آماد الزمان، متصلة بإبراهيم صاحب الحنيفة الأولى ﷺ، فيشعر أن له رصيدًا أكبر من رصيده الشخصي؛ وأكبر من رصيد جيله الذي يعاصره.

٢ ـ ١١ ـ النِّفاق.

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون: ٤].

يقرر الله سبحانه أنَّ المنافقين هم العدو الأول للمؤمنين؛ فوجب بغضهم ومقتهم في الله؛ لأن المؤمن لا يحب عدوه وعدو الله.

ويتأكد هذا البغض والمقت، بمدلول الدعاء من الله عليهم، وهو قضاء نافذ لا رادَّ له، ولا معقب عليه.

٣ ـ ١١ ـ الابتداع في دين الله.

وقد بسطت هذه المسألة في كتابي: «البدعة وأثرها السَّيىء في الأمَّة» فانظرها غير مأمور.

٤ ـ ١١ ـ المعاصي.

من اقترف شيئًا من هذه القاذورات؛ فإنه أتى بابًا يبغضه الله، فعلى العبد المؤمن أن يبغض فعله، وينصح له، ولا يكون عونًا للشيطان عليه.

قال المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٦٩): «ومن البغض في الله بغض كثير ممن ينسب نفسه للعلم في زماننا لما أشرف عليه من مظاهر النِّفاق، وبغضهم لأهل الخير، فيتعين على من سَلِمَ قلبُهُ من المرض أن يبغضهم في الله لما هم عليه من التكبر والغلظة والأذى للناس» ا.هـ.

* * *

أمورٌ لا تنافي البُغضَ في الله

اعلم أخا الإيمان: أن الَّذين يأخذون أمور البغض في الله على إطلاقها دون تفصيل ومعرفة بالاستثناءات يقعون في الخطأ.

ودونك جملة من الاستثناءات الَّتي لا تخالف ولا تنافي البغض في الله، ولا تُعدّ من الحبِّ في الله.

١ ـ ١٢ ـ اللِّين في عَرض الدَّعوةِ وتبليغها.

لا يعني البغض في الله حجب الدّعوة الإسلامية والنّصح عن الآخرين، وتركهم في حمأة المعصية دون تذكير أو تحذير، ولذلك لا بدَّ من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والحرص على هداية الضَّالين، والإشفاق عليهم، والرغبة الصَّادقة في دخولهم أبواب الطَّاعة والهداية.

ولما كان هذا لا يتم إلاّ بأن تأتي النُّفوس من أبوابها فإنَّ الله تعالى ذِكْره جعل معالم الدعوة إلى سبيله: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن للتي هي أقوم.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

واعلم يا مسلم: أنَّ النُّفوس الشاردة، والقلوب القاسية لا تلين إلا بإظهار العطف، والشفقة، والحرص؛ ولذلك كان التوجيه الرَّباني إلى موسى وهارون عندما أرسلهما إلى طاغوت مصر وفرعونها:

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ ـ ٤٤].

وهذا النَّمط من الآيات القرآنية لا يُعارض قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

وذلك أنَّ الغِلظة المأمور بها مجالها في مقامين:

الأول: القتال، وهو مقام يحتاج إلى شدَّة وغلظة؛ كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

الآخر: الرَّدُّ على الكفَّار الَّذين بَلغتهم الدَّعوة وحاربوها، وأهل البِدع والشبهات المضلَّة الَّذين يصُدون عن المنهج الحق.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦١-٦٣].

ولذلك كان الرسول ﷺ ينصب منبرًا لحسان بن ثابت ليهجوَ المشركين، ودعا رسول الله ﷺ على كسرى عندما مزق كتابه الَّذي أرسله إليه ليدعوه إلى الله.

والشواهد في الباب كثيرة.

وبهذا يثبت خطأ قول بعض أهل العلم الَّذين يزعمون أن مقام الدَّعوة لين كله ابتداء وانتهاءً، وأن الغلظة مجالها القتال فحسب.

ولو كان الأمر كذلك، لكان لزامًا أن يُقتِّل الرَّسول ﷺ المنافقين كما فعل بالمشركين، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن؛ فتبين أنَّ الغلظَة تمتد أيضًا لتشمل الرَّدَّ عليهم وبيان باطلهم، ودحض شبهاتهم، وقمع بدعهم، وهكذا كان السَّلف الصَّالح يفعلون.

واعلم أخا الإيمان: أن هذا المقام دقيق يحتاج إلى شيء من التدبير والأناة، لتلجأ إلى ركن وثيق.

وليعلم الموفق لطاعة ربه واتباع سنّة رسوله ﷺ: أن اللِّين في الدَّعوة لا يعني المداهنة، والتنازل عن شيء من الدِّين وتمييع الإسلام ليتناسب مع الأهواء والشهوات، وبحجة أنَّه يُسرٌ وسهل.

وكذلك لا تعني الغلظة بالكلمة البليغة والحجة الدّامغة السبَّ، والشتم، والسَّفاهة.

٢ ـ ١٢ ـ الإحسانُ إلى الكافر المُعاهدِ والذِّمِّي المستأمن.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

❊ ❊ ❊

الخاتمة
رزقنا الله الحسنى وزيادة

اعلم أخي في الله: أنَّ الحُبَّ والبغضَ في الله قمة سامقةٌ في الكمال الإيماني، ترنو أبصار المتنافسين في حبِّ الله ورسوله، وتهوي إليها أفئدة المتسابقين إلى ظلٍّ ظليل يوم لا ظلَّ إلا ظله سبحانه وتعالى بعد أن لفحهم هجير العلاقات الأرضية الموتورة.

ولذلك فاحرص أخا الإيمان أن تنتظم في عقد المتحابين في الله، المتواصلين في الله، المتباذلين في الله؛ الذين يغبطهم الأنبياء والشهداء.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

نحو أخلاق السلف (٣)

الصبر الجميل

في ضوء الكتاب والسنة

قبس من التنزيل

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾

[المعارج: ٥]

قال ﷺ: «الإيمان: الصبر والسماحة».

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله؛ نحمده، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد:

فإنَّ العبد لا يستغني عن الصَّبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقى في الدُّنيا لا يخلو عن نوعين:

النَّوع الأول: النِّعم التي أسبغها الله على عبده ظاهرًا وباطنًا؛ فهو محتاج إلى الصَّبر عليها؛ فلا يركن إليها، ولا ينهك فيها، ويراعي الحقوق؛ فيعطي كلَّ ذي حقٍ حقَّه.

النَّوع الثاني: المصائب التي تحيق بالعبد؛ فتأخذ الأحبَّة، وتهلك الأموال؛ فهو محتاج إلى الصَّبر فيها؛ فلا يجزع.

وهكذا يكون الصَّبر ضرورةً بشريةً، وفريضةً شرعيةً، تلازم الإنسان في جميع أحواله وتقلباته.

ولذلك لابدَّ من بيان هذا المقام الأعلى، والمقصد الأسنى في ضوء كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ؛ فكانت هذه الرسالة الموسومة بـ «الصَّبر الجميل في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة الصَّحيحة».

وأرجو الله أن يتقبّلها بقبول حسن، ويجعلها للصَّابرين إمامًا تهدي بالتي هي أحسن للتي هي أقوم.

كتبه
أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي
ليلة السبت غرة ربيع الآخر سنة ألف وأربعمائة وثمان من هجرة
رسول الله ﷺ في عمان البلقاء عاصمة جند
الأردن من بلاد الشام المحروسة.

* * *

١ ـ ما هو الصَّبر؟

هو حبس النَّفس على طاعة الله بالمحافظة عليها دومًا، ورعايتها إخلاصًا، وتحسينها علمًا.

هو كفُّ النَّفس عن المعاصي، وثباتها في مقابلة الشَّهوات ومقاومة الهوى.

هو الرِّضى بقضاء الله وقدره دون شكوى فيه، ولا معه.

❊ ❊ ❊

٢ - ما هو حكم الصَّبر؟

اعلم أخا الإسلام - أيَّدك الله بروح منه - أنَّ الصَّبر واجب بالكتاب والسُّنَّة وإجماعِ الأمَّة، وهو كذلك بالضرورة العقلية.

ذكر الله سبحانه وتعالى الصَّبر في كتابه العزيز في بضع وتسعين موطناً بأنواع عديدة تدلُّ على وجوبه منها:

«١ - ٢ - **الأمر به**»؛ كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

«٢ - ٢ - **النَّهي عن ضده**»؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

«٣ - ٢ - **الأمر بالاستعانة به**»؛ كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

«٤ - ٢ - **الثناء على أهله**»؛ كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ٧٧١].

«٥ - ٢ **إيجابه محبته لهم**»؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

«٦ - ٢ - **إيجابه معيته لهم**»؛ **كقوله**: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [**الأنفال**: ٤٦].

«٧ - ٢ - **إخباره بأن الصَّبر خير لأصحابه**»؛ كقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

«٨ - ٢ - **إيجاب الجزاء للصّابرين بأحسن أعمالهم**»؛ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

٩ - ٢ - إيجابه سبحانه وتعالى الجزاء للصَّابرين بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

١٠ ـ ٢ ـ إطلاق البشرى لأهل الصَّبر : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

وأما السُّنَّة الصَّحيحة فهي طافحة بالأحاديث الدالة على وجوبه منها :

قال ﷺ : «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له**»(١) .

وأما الإجماع؛ فقد قال ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢) «وهو واجب بإجماع الأمة» :

والواجب على العاقل : أن يوقن أنَّ الأشياء كلها قد فرغ منها؛ فمنها ما هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه، فإن دفع إلى حال شدَّة وجب عليه أن يتَّزر بإزار له طرفان :

أحدهما : الصَّبر

والآخر : الرِّضى

ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شدَّة صعبت وتعذر زوالها على العالم بأسره ثم فرِّج عنه في أقلِّ من لمح البصر .

وليعلم العبد الطائع أن وجوب الصبر على الجملة لا على التفصيل، وذلك كما هو مبين في مظانِّه .

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ١٢٥ ـ نووي) من حديث صهيب رضي الله عنه .

٣ـ الصبر ضرورة دنيوية وفريضة شرعية

الصَّبر ضرورة لازمة للإنسان؛ ليبلغ آماله، وتنجح مقاصده؛ فمن صبر ظفر.

فلولا الصَّبر لما حصد الزارع بذره، ولما جنى الغارس ثمره، وهكذا كلّ النّاجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر: استمرءوا المرَّ، واستعذبوا العذاب، ومشوا على الأشواك، ولم يبالوا بالعوائق، ولله در أبي يعلى الموصلي القائل:

إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصَّبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في أمر يحاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز

قد يعثرون لكنهم سرعان ما ينهضون، وقد يفشلون مرات ومرات لكنهم لا ييأسون.

لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجًا
أخلق بذي الصّبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

هكذا أمر الدنيا فكيف من أراد الفلاح في الآخرة؟

لا شك أن حاجته للصَّبر أوكد، وضرورته إليه أشدُّ وألزم، وبخاصة وقد حمل الأمانة التي تنوء بحملها السَّماوات والأرض والجبال.

وأهل الإيمان أشدُّ تعرضًا للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم وأنفسهم وكلِّ عزيز لديهم؛ لأنهم يتشدون الجنَّة، وهي سلعة الله الغالية، فلا بدَّ لها من ثمن... ولا مفرَّ من الثَّمن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ

فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد دفعه أهل الحق على مر العصور؛ فلا بد أن يدفعه إخوانهم من بعدهم؛ كما قال جل جلاله: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقال أيضًا: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ﷺ: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»**(١).

والابتلاء خير لأهل الإيمان في الجملة لأمور عدة:

أ- يطهر الصَّفَّ المسلم من الأدعياء الذين لبسوا لباس المؤمنين، وقالوا: نحن معكم، فإذا أصابت أحدهم فتنة أو محنة في سبيل دينه خارت قواه، ووهنت عراه، وفيهم يقول الله:

---

(١) صحيح - أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، وابن حبان (٦٩٨و٩٩٦)، والحاكم (١/ ٤٠و٤١)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) وغيرهم.
من طريقين عن سعد بن أبي وقاص به مرفوعًا.
قلت: وهو صحيح.
وله شاهد آخر: أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والحاكم (٤-٣٠٧)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.
قلت: وهو كما قالا.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فالابتلاء يفرز هذه الأصناف من بين المؤمنين، وينفي الخبث من صفوفهم؛ كما ينفي الكير خبث الحديد.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ب ـ تربية المؤمنين، فالابتلاء ينضجهم، ويقوّي عودهم، ويصقل معدنهم.

قال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١].
وقوله سبحانه: ﴿ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ت ـ يرفع المؤمنين درجات، ويضاعف لهم في الحسنات ويُكَفِّر عنهم الخطايا والسيئات، فيخرجون من الابتلاء كيوم ولدتهم أمهاتهم.

وذلك لأن الذنوب لازمة للبشر؛ فمن رحمة الله بعباده المؤمنين أن يتعهدهم بالابتلاء الفينة بعد الفينة؛ لتتحات خطاياهم بالصَّبر.

قال ﷺ: «**فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»(١).

ومن هنا أمر الله المؤمنين بالصَّبر والمصابرة والمرابطة على ثغور النفس؛ لئلا يتسرب إليها اليأس والجزع والسَّخط والوهن ولن يغني عنهم شيئًا.

---

(١) مضى تخريجه.

وإذا كان الصَّبر ضرورة لأهل الإيمان فهو أكثر للرسل والنَّبيين؛ فهم أئمة أهل الإيمان؛ فهم أشد الناس ابتلاء.

وقد كان أولو العزم من الرُّسل أشد المرسلين ابتلاء؛ فكان صبرهم محلَّ القدوة والأسوة.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وأشد هذه النخبة المصطفاة من المرسلين ابتلاء هو خاتمهم محمد ﷺ الذي قال: «**لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أُخفت في الله وما يخاف أحد**»(١).

فلا غرو أن نجد آيات كثيرة تأمر الرسول ﷺ بالصَّبر والاصطبار منها:

قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

فيا إخوتي في الله هكذا كان سيِّد الصَّابرين حتى أتاه اليقين، فلكم به أسوة حسنة، وقدوة صالحة.

---

(١) صحيح ـ أخرجه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١) وأحمد (٣/ ١٢٠، ٢٨٦)، وابن حبان (٢٥٢٨)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٧٦).
من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد صحيح.

٤ ـ منزلة الصبر

المتتبِّع للمَواطن التي ذكر الله سبحانه وتعالى فيها الصبر في كتابه الكريم وللمواضع التي قالها الرسول ﷺ يتبين بجلاء أن الصبر ذو مقام كريم، وخلق عظيم.

ويدلُّك على ذلك أمور هاكها:

١ ـ ٤ ـ اقتران الصَّبر بالقيم العليَّا في الإسلام:

أ ـ قرنه الله باليقين قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

لا يخفى على الرَّبانيين أن شياطين الإنس والجن يقتحمون النَّفس البشرية بسلاحين:

أحدهما: الشَّهوات؛ لإفساد سلوكه؛ فيغوى.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

الآخر: الشُّبهات؛ لإفساد فكره؛ فيضل.

والمؤمن الذي يرابط على ثغور نفسه يجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى:

أحدهما: الصَّبر؛ فيجتث الشهوات والأهواء.

الآخر: اليقين؛ فيحطم الشبهات والأوهام.

فمن اجتاز هذه القنطرة كان إمامًا للمتقين.. وهل تنال الإمامة في الدِّين

إلا بالصَّبر واليقين، وسيأتي مزيد بيان وحسن تفصيل ـ إن شاء الله.

ب ـ وربطه الله سبحانه وتعالى بالشكر أربع مرات في أربع سور.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال تبارك اسمه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان ٣١].

وقال جل ثناؤه: ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٣].

وكذلك جمع رسول الله ﷺ بين الشكر والصبر فقال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له**»(١).

ت ـ وجمعه الله سبحانه وتعالى مع التَّوكل في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨ـ٥٩].

فمن جمع الصبر والتوكل فقد حقق مراده، وبلغ غايته لأن النجاح يتوقف على أمرين:

---

(١) مضى تخريجه.

أحدهما: من جانب المرء، وفي مقدوره، من جهود تبذل، وصعاب تذلَّل، وهذه الأمور بحاجة إلى صبر ومصابرة.

والآخر: ما لا يملكه مما يحجبه الغيب، وتخبئه الأقدار، وهذا لا يملك المؤمن إزاءها إلا التَّوكل على الله، والالتجاء إلى ركنه الشديد.

ث ـ وقرنه ربُّ العالمين بالصَّلاة في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ج ـ وقرنه بالتسبيح والاستغفار في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وقال: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

ح ـ وجمعه مع الجهاد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

والجهاد ذروة سنام الإسلام، وكذلك الصَّبر ذروة سنام الأخلاق؛ لأنه يضمها، ومن أكمامه تخرج مكارم الأخلاق؛ كما سيأتي إن شاء الله.

د ـ وبالحقِّ في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وتعظيمًا لمنزلة الصَّبر؛ فقد كرر لفظة التواصي به، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل تأكيدًا على مكانته، وتنبيهًا على أهميته المستقلة بذاته، واستحقاقه؛ لأن يُتواصى به أصلاً لا تبعًا.

ذ ـ وقرنه بالرحمة في قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

الصبر هو الثبات على فعل الخير، والرحمة هي المحرك لفعل الخير،

ومن هنا كان الربط بينهما والإشارة إليهما.

والمتتبع لكلمة﴿تَوَاصَوْا﴾ يجدها قد ذكرت أربع مرات في القرآن الكريم: ثنتين في سورة العصر، ومثلها في سورة البلد، وكان للصبر الحظ الوافر، حيث ذكر مرتين، وهذا يفيد أمورًا:

الأول: علو منزلة الصَّبر، وأهميته في دين الله وحياة المؤمنين.

الثاني: مشقته على النفوس، وأنَّ اسمه كطعمه، فلذلك يحتاج إلى التَّوصية والتَّذكير بين المؤمنين.

الثالث: إن الصَّبر هو العامل المشترك بين قيم الإسلام وأخلاقه؛ فهو الذي يجمع شملها، ويلم شتاتها فتبعث موات القلوب، ومن أجل هذا المعنى قُرن بها في أكثر المواطن، وقد أشرنا إلى بعضها، والله أعلم.

٢ ـ ٤ ـ اشتمال الصبر على أخلاق الإسلام:

اعلم أيها العبد الصابر ابتغاء مرضاة الله، أن الصَّبر يدخل فيه أخلاق الإيمان، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات، ودونك البيان.

العفَّة صبر على شهوات البطن والفرج.

الشَّجاعة صبر في ساحات الوغى.

الحلم صبر على دواعي الانتقام عند ثورة الغضب.

سعة الصَّدر صبر عند الضجر.

القناعة صبر على الكفاف واليسير.

الكتمان صبر على إخفاء أمر.

ضبط النَّفس صبر على دواعي طغيان شهوات النَّفس.

والزهد صبر على فضول العيش .

فها أنت ترى أنَّ شجرة الأخلاق الإسلامية ساقُها الصَّبر ، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان قال : «**السماحة والصبر**»[1] .

وبذلك فإن المسلم لا يسعه أن يستغني عن الصَّبر في كل حال من أحواله .

* * *

(١) حسن ـ أخرجه الحاكم (٣/ ٦٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٥٧) .
من طريق بكر بن خنيس عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده مرفوعًا به .
قلت : وهذا إسناد حسن ـ إن شاء الله ؛ بكر بن خشن اختلف فيه اختلافًا كثيرًا، لكن القلب يطمئن إلى ما قرره الحافظ في «التقريب» (١/ ١٠٥) حيث قال : «صدوق له أغلاط» .
وتابعه محمد بن ذكوان عن عبيد بن عمير بن عمرو بن عبسة .
قلت : محمد بن ذكوان ضعيف .
وتابعه أيضًا سويد أبو حاتم حدثني عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده .
قلت : وسويد أبو حاتم ضعيف .
أخرج هذه المتابعات ابن نصر في «الصلاة» (ق١٤٣/ ٢) .
وله عنده شاهد مرسل صحيح من طريق ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عبيد ابن عمير .
وبذلك يثبت الحديث ـ إن شاء الله .

٥ - شروط الصبر

١ - ٥ - الإخلاص:

الصَّبر مشترك بين الناس جميعًا، لكن الذي يفرِّق الصَّبر الشَّرعي عن غيره هو الدَّافع؛ فالصبر المحمود في القرآن والسنة هو ما كان لله تعالى حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧].

وقال أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [الرعد: ٢٢].

لقد مدحهم الله؛ لأنهم صبروا ابتغاء وجه الله، وهذا هو الإخلاص المبرأ من شوائب الرِّياء، وحظوظ النفس.

٢ - ٥ - عدم شكوى الله:

شكوى الله إلى العباد تنافي الصَّبر، وتخرجه إلى السَّخط والجزع.

قال ﷺ: فيما يرويه عن ربه: « **قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه، ثم يستأنف العمل** »[(١)].

ولله درُّ الشاعر الحكيم:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرَّحيم إلى الذي لا يرحم

---

(١) صحيح - أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٩)، والبيهقي (٣/ ٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قلت: وإسناده صحيح رجاله ثقات.

٣ ـ ٥ ـ أن يكون في أوانه:

الصَّبر المحمود والمأجور عليه صاحبه هو ما كان في أوانه أما إذا فات الأوان فلا جدوى منه؛ لأنه صبر في غير محله، وبعد انتهاء أمده وزمانه.

وهذا ما حكاه الله عز وجل عن صبر أهل النَّار: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال جلَّ جلاله: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله على امرأة عند قبر، وهي تبكي؛ فقال لها رسول الله ﷺ: **«اتقي الله واصبري»**.

فقالت: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه.

قال: فقيل لها: إنه النَّبي ﷺ.

قال: فأخذها مثل الموت.

قال: فأتت باب النَّبيِّ ﷺ فلم تجد عنده بوَّابين.

فقالت: يا رسول الله لم أعرفك.

فقال ﷺ **«الصَّبر عند الصَّدمة الأولى»**(١).

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٤٨ ـ الفتح)، ومسلم (٦/ ٢٧٧ ـ ٢٢٨ ـ نووي).
والمراد بـ «الصدمة الأولى»: مفاجأة المصيبة عند ذروتها حمولتها؛ لأنّه إذا طالت الأيام وقع السُّلو طبعًا، وحينئذٍ لا فائدة من الصَّبر؛ لأنّه جاء بعد فوات الأوان.

٦ ـ مجالات الصبر

١ ـ ٦ ـ الصبر على بلايا الدّنيا :

لا أحد يسلم من آلام النَّفس، وأمراض البدن، وفقدان الأحبَّاء، وخسران المال.

وهذا ما لا يخلو منه برٌّ ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولكن المؤمن يتلقى هذه المصائب برضى وطمأنينة تفعم قلبه الذي أسلس قياده لمقلب القلوب والأبصار؛ لأنَّه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالبلاء هنا عام يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات.

ومن لطف الله ورحمته بعباده أنَّه جعل البلاء: ﴿بشيء من﴾ الآية؛ ليدل على التقليل مراعاة لضعف العباد، وتخفيفًا عليهم، ورحمة بهم.

وفي هذا المجال كان صبر أنبياء الله مثلاً يُقتدى؛ فأيوب عليه السلام صبر على مرضه وفقد أهله، ويعقوب صبر على فراق ولده، وكيد أبنائه، ويوسف صبر على السجن والافتراء والدَّسِّ والتشويه الذي مارسته امرأة العزيز قبل أن يحصحص الحقُّ.

٢ ـ ٦ ـ الصَّبر عن شهوات النفس :

إذا أخذت الدنيا زينتها وأقبلت على الإنسان تتراقص كالحسناء اللعوب،

ونشرت شهواتها ذات اليمين وذات الشمال، فهذا لون جديد من الابتلاء إنه فتنة السَّراء؛ لأنَّ الله يبلو عباده بالشَّر والخير.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

انظر رحمك الله لقد جعل ذو الجلال والإكرام التنعيم والإكرام ابتلاء كالتَّضييق في الرِّزق سواء.

ولذلك فالعبد الصالح محتاج إلى الصبر عن ملاذِّ الدنيا وشهوات النفس؛ فلا يطلق لها العنان لتسترسل وراء شهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.

وثمة أمر آخر للصبر في هذا المجال إنه الصَّبر عن التطلّع إلى دنيا الآخرين، والاغترار بما ينعمون به من مال وبنين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ولا تظن أيها العبد القانع بما آتاه الله أن ما في أيدي الطغاة العتاة المغرورين نِعَمٌ ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وهذا هو المثال لا يزال شاخصًا للذين يعتبرون في كلِّ القرون.

لقد خرج قارون الذي ملك الكنوز ذات المفاتيح التي تنوء بالعصبة أولي القوة.. خرج على قومه في كامل زينته، وأبهى حلَّته، وفخامة موكبه ومركبه، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها في حسرة وتلهف: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

ولكنَّ الدنيا لن تخلو من ناصح أمين وَرِثَ العلم والإيمان والصبر من المرسلين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠].

وكان ما قدره الله فصل الخطاب: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨١ ـ ٨٢].

٣ ـ ٦ ـ الصَّبر على طاعة الله:

الطريق إلى الله مليئة بالعوائق؛ لأنَّ النَّفس بطبعها تنفر من القيود، والعبودية لله قيد لشهوات النَّفس، ولذلك فالنَّفس لا تستقيم على أمر الله بيسر وسهولة، فلا بدَّ من ترويضها، وكبح جماحها، وهذا يحتاج إلى اصطبار.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ٢٣١].

والصبر على طاعة الله يتكون من ثلاث شعب:

الأولى: صبر قبل الطاعة، بتصحيح النِّيَّة والإخلاص والتبرؤ من شوائب الرِّياء.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

لقد قدَّم الله سبحانه وتعالى الصَّبر على العمل.

الثانية: الصَّبر على حال الطاعة حيث لا يغفل عنه أثناء تأديتها ولا يتكاسل؛ فيأتي بها على أكمل وجه مشروع متبعًا ما بيَّنه الرسول ﷺ حذو القذة بالقذة.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

الثالثة: الصَّبر بعد العمل؛ فلا ينظر لنفسه بعين العجب؛ فيتظاهر بما قدَّم سمعة ورياء؛ لئلا يحبط عمله، ويبطل أجره، ويمحو أثره.

٤ - ٦ - الصبرَّ في الدَّعوة إلى الله.

الدَّعوة إلى الله سبيلها طويل، تحفُّ به المتاعب والآلام، وذلك أن الدعاة يطلبون من الناس أن يُطلقوا أهواءهم، وَيَنْحَروا أوهامهم، ويثوروا على شهواتهم، ويقفوا عند حدود الله أمرًا أو نهيًا.

وأكثر الناس لا يؤمنون بهذا النَّمط الجديد؛ فيتخذون من هذه الدَّعوة عدوّا يحاربونه بكلِّ سلاح.

وأمام هذه القوّة العاتية، والسُّلطة الطّاغية لا يجد الدّعاة مفرًّا من الاعتصام باليقين والصَّبر؛ لأن الصبر سيف لا ينبو، ومطية لا تكبو، ونور لا يخبو.

وحينئذ لا بدَّ أن يتنادى أهل الإيمان؛ ليتواصوا بالحق، ويتواصوا بالصبر؛ لينجو من الخسران المبين الذي يواجه الفارِّين من وجه الهدى.

وفي ذلك أنزل الحق سورة كاملة هي سورة العصر: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١-٣].

ومن هذه العصابة المباركة العبد الصَّالح لقمان وابنه، وها هو لقمان يوصي ابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

ودونك أيها الداعي إلى الله على بصيرة بعض المعوّقات التي تعترض

طريقك لئلا تأخذك على حين غرَّة:

أ ـ إعراض النَّاس عن دعوتك.

لا شيء أثقل على صاحب الحقِّ وهو يصيح بأعلى صوته، وينادي بملء فيه، لينقذ الناس من الظُّلمات إلى النّور، فلا يجد إلا آذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا... أناسًا قد استغشوا ثيابهم، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا.

فها هو نبي الله ﷺ يناجي ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ـ٧].

ولكنَّ التَّحديات تزيد عود داعي الله صلابة، وهمته شموخًا، فلا يفتأ قائمًا على أمر الله، ظاهرًا على الحق، لا يضره من خالفه، ولا من خذله حتى يجعل الله له سبيلاً: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨ـ٩].

هذا هو شأن قوم أول المرسلين نوح ﷺ وهو موقف قوم خاتم المرسلين محمد ﷺ لم يتغير ولم يتبدل، وهذه سبيل المجرمين في كل القرون ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

ويصف الله تبارك وتعالى موقف قريش من النَّبيِّ ﷺ: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١ـ٥].

ولهذا قال الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ـ١٢٨].

ب ـ الأذى من الناس قولاً وفعلاً.

أعداء الحق يقابلون الإحسان بالإساءة، فالدّاعي إلى الله يمحض لهم النّصح؛ فيتهموه بما ليس فيه، ويدعوهم إلى الله بالموعظة الحسنة؛ فيردوه بالسوء، ويجادلهم بالتي هي أحسن؛ فيقاوموه بالتي هي أخشن، ويصدع بينهم بالحقِ؛ فلا يسمع منهم إلا الباطل.

وفوق هذا كله تمتدُّ يد الباطل إلى الأموال؛ فتغصبها، وإلى الأبدان؛ فيعذبها، والحرمات؛ فينتهكها، والأنفس فيقتلها.

وهذا ما أشار إليه ربُّ العزّة مخاطبًا المؤمنين؛ ليوطنوا أنفسهم على الصَّبر والثبات: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وفي الآية نكت لطيفة ينبغي لفت نظر الدعاة إليها:

«**الأولى**: وصف الله سبحانه وتعالى الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة، وهذا يدل على أن حربًا كلامّية وإعلامية ستشن على أهل الإيمان.

أسلحتها: التَّشويه، والتشويش، والدَّسُّ، والافتراء، والتَّحريف.

شعارها: الغاية تسوِّغ الوسيلة، واكذب واكذب حتى يصدقك الناس.

فلا بد من احتمال مكارهها، والصبر على تجرع غصصها حتى يأتي أمر؛ فيحق الحق، ويبطل الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقًا.

الثانية: قرن الله الصَّبر بالتقوى فلا بد أن يجمع المؤمنون التقوى والصَّبر لمواجهة هذه الحرب الضروس.

الصَّبر للثَّبات في وجه الباطل.

والتَّقوى للتَّعفُّف عن مقابلة الخصوم بأسلحتهم الخبيثة؛ فالمؤمن

لا يواجه الدَّسَّ بالدَّسِّ، ولا الافتراء بمثله؛ لأن المؤمنين يحكمهم قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨].

الثالثة: قرن الله بين أهل الكتاب والمشركين على اختلاف مشاربهم ووجهاتهم.

وفي هذا لفتة رائعة إلى أن عداوتهم للإسلام وأهله وحَّدت بينهم على اختلاف.

هذا ما قرَّره القرآن الكريم قبل مئات السِّنين وأيَّده التاريخ والواقع.

لقد وجدنا اليهودية العالمية، والصليبية النصرانية، والشيوعية الدولية تختلف بينها أشد الاختلاف، ثم تتناسى هذا كله عندما يكون الإسلام هو العدو.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ ﴾ [الجاثية: ١٩].

... نعم أيها المسلمون: إن الكفر ملَّة واحدة.

إن عجبي لا ينقضي من أمة يقرر دينها هذه الحقيقة، ولكنها تتكالب على خطب وُدِّ أعدائها من يهود ونصارى وشيوعيين، ويرتمي ولاة أمرها في أحضانهم... فصبر جميل، والله المستعان على ما يفعلون.

وأنبياء الله جميعًا يمثلون هذا النّوع من الصَّبر حيث قالوا ردًّا على أذى أقوامهم: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وكان عزاء رسول الله ﷺ أنَّ الرُّسل جميعًا من قبله حدث لهم الأذى والتشويه والافتراء: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[الأنعام: ٣٤].

ومن هنا أمر الله رسوله ﷺ أن يصبر على إيذاء قومه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

ولقد ضرب سحرة فرعونَ حين وقع الحقُّ فآمنوا مثلاً رائعًا في الصَّبر، فلم يفت من عضدهم، ولم يزعزع يقينهم تهديد فرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣ ـ ١٢٤].

ما هذا الوعيد الهادر من طاغية جبار، يقول للناس: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري.

إن أمواجه تتحطم على يقين المؤمنين الذين وقفوا كالجبال الشُّمِّ، ولكنهم توجهوا إلى الله؛ ليثبتهم، ويلقي في قلوبهم السكينة، ويفرغ عليهم الصَّبر: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥ـ١٢٦].

ت ـ استبطاء النصر والفرج.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى العاقبة للمتقين، وكتب لهم التَّمكين في الأرض ليكون الدّين كلُّه لله، ولكن هذه المنزلة لن يبلغها المؤمنون بين عشية وضحاها، ولن تتحق بالأماني والأحلام، ولن تشرق شمسها إلا بعد ليل طويل حالك من الفتن والشّدائد والمحن، تزيغ لهولها الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظنُّ النَّاس بالله الظنون، هنالك يبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالاً شديدًا، ولا يثبت إلا المخلصون، حينئذ يكون نصر الله أقرب للمرء من نفسه التي بين جنبيه.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

متى نصر الله؟ استبطاءً له، واستعجالاً لمجيئه؛ هنالك يجيء الغوث للملهوف، والفرج للمكروب؛ فتفرح؛ القلوب ألا إن نصر الله قريب.

وليعلم المسلم المتعلق بحبال الفرج أن في التأخير لطائف أسرار منها:

أ ـ أن الكرب كلما اشتدَّ كان الفرج قريبًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

ب ـ أن الكرب كلّما اشتدّ وجد اليأس من كشفه من جهة المخلوق، وازداد التَّعلق بالخالق حتى يصل العبد إلى محض التَّوكل الذي هو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٣].

ت ـ أن الكرب كلما اشتدَّ؛ فإن العبد حينئذ يحتاج إلى زيادة مجاهدة الشيطان؛ لأنَّه يأتيه؛ فيقنطه، ويسخطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيحوز ثواب مجاهدة عدوه ودفعه.

ولهذا قال ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل؛ فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي؛ فَيَدعُ الدُّعاء**»(١).

ث ـ أن المؤمن كلّما استبطأ الفرج واستيأس منه ولا سيما بعد كثرة الدعاء وإلحاح التضرع ولم تظهر له أثر الإجابة رجع إلى نفسه يلومها قائلاً: إنّما أتيت من قبلك.

وهذا اللوم أحبُّ إلى الله من أكثر الطّاعات؛ لأنه يورث العبد الصَّالح انكسارًا لربه؛ فلذلك يسرع إليه الفرج، ويتواثب إليه اليسر؛ لأنَّ الله عند

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ١٤٠ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٣).

المنكسرة قلوبهم لأجله، وعلى قدر الكسر يكون الجبر.

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

٥ ـ ٦ ـ الصَّبر حين البأس:

إذا لاقى المسلمون أعداءهم زحفًا؛ فإن الفرار حينئذٍ كبيرة موبقة، حيث يصبح الصَّبر والثبات فريضة لازمة، فالصَّبر هنا شرط أساسي للنَّصر، وعنصر ضروري لقهر العدوِّ.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال ﷺ: «**النّصر مع الصَّبر، والفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا**»(١).

ومن هنا أثنى الله على الصابرين تحت ظلال السيوف فقال: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأعظم ما تشتدُّ به الحاجة إلى الصَّبر في الحرب عندما ينفرط عقد الصَّفِّ، وتدبُّ روح الهزيمة في المقاتلين، وتنتشر الشائعات المثبطة للهمم، المحطمة للعزائم.

وخير من يمثل هذا المجال رسول الله ﷺ؛ فعندما كان يشتد الوطيس

---

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، والحاكم (٣/ ٥٤٢)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٠٠)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٥)، وعبد ابن حميد في «المنتخب» (٦٣٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤) وغيرهم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما.
قلت: مفرداتها لا تخلو من مقال، لكن بمجموعها يصبح الحديث حسنًا، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة، والله أعلم.

يتخذه المسلمون جُنَّة؛ كما حدث في غزوة أحد وحنين.

ولقد كان النَّبيُّون من قبل صابرين في ساحات الوغى.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وها هو طالوت والقِلَّة المؤمنة من جنوده يلقي على المؤمنين درسًا علميًا حيث عقد لجنوده امتحانًا يختبر صبرهم: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هكذا يجب على القائد الحريص على دعوته وجنده أن يختبر قدرتهم قبل أن يقذف بهم في المعارك، حيث تتجلى الحقيقة الهامة وهي: أن الذي لا يصبر على الأمر اليسير لا يمكن أن يثبت عند التقاء الجَمْعين، فلا بدَّ من التربية قبل الجهاد.

إنَّ الذين نجحوا في الإمتحان قلَّة تبيَّن صبرها عند الشِّدَّة؛ فاجتازت النهر مع طالوت: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٩، ٢٥٠].

يا لروعة التعبير القرآني المعجز... إنهم لم يسألوا الله قَدْرًا معينًا من الصَّبر بل طلبوه أن يفرغ عليهم إفراغًا... إن نفوسهم لم تطعم ماء النهر، ولكنها توّاقة لتشرب كأس الصَّبر حتى الثُّمالة.

وكانت النتيجة التي ستكرر على مر العصور: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٦ ـ ٦ الصَّبر على الزوجة والأولاد:

النِّساء والبنون محببة للنَّفس الإنسانية، بل هما زينة الحياة الدنيا؛ لذلك فهما فتنة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقد بيَّن الرَّسول ﷺ الكثير من جبلَّة النِّساء؛ لتستبين للرجال سبيل معاملتهن، والصَّبر على ضعفهن الذي يسبب خلافات في العلاقات الزوجية.

ولذلك لا تستقيم الحياة الزوجية إلا بأن يكون الزّوجان واقعيين يصبر كلٌّ منهما على صاحبه، ويتحمل منه بعض ما لا يروقه بل بعض ما يؤذيه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرّجال بالصَّبر؛ فإن أحسَّ بالنّفور في نفسه قِبل زوجه؛ فليقدم العقل على العاطفة، وينقاد للأخلاق على اتباع الهوى والشَّهوة.

قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

٧ ـ ٦ الصَّبر على الأخوة في الله:

أشاد الله بنيان المجتمع الإسلامي على أسس قوية، وعرى وثيقة، ووشائج مترابطة تنتظم كيان الأمَّة الإسلامية؛ فتغدو جسدًا واحدًا.

لكن الإنسان من طبيعته النَّقص، والنِسيان والغفلة؛ لذلك قد يصدر منه أفعال تؤذي إخوانه.

فإن قابلوها بمثل فعله كانوا عونًا للشيطان عليه؛ لذلك لابدَّ أن يمحضوا له النُّصح، ويدرءوا بالحسنة السَّيئة؛ ليعود المخطئ إلى عرينه؛ فيأتلف الشمل، ويستأنف العمل.

وفي هذا يقول رب العزة تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ـ٣٦].

وبشر الله سبحانه وتعالى الذين استجابوا لهذا النداء الربَّاني بالفوز والفلاح والنجاح: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وهذا النَّوع من الصَّبر يجب أن يكون مشفوعًا بالرَّحمة والشَّفقة والرَّأفة على الأخ؛ لتزداد الألفة؛ ويتماسك البناء، وتشتدَّ أركانه.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧ـ١٨].

فطوبى لمن ألجم نفسه بلجام الحلم، وكبح جماحها عند فورة الغضب ودواعي الانفعال، وحرص على دفع التي هي أخشن بالتي هي أحسن؛ لأن هذا السّلوك الجميل يهدي للتي هي أقوم، ويحيل العدو اللئيم إلى صديق حميم.

وهكذا فلتكن أيها الأخ في الله حريصًا على كسب قلب محبٍ؛ لأنك بذلك تنقص صفَّ الأعداء واحدا.

٨ ـ ٦ ـ الصَّبر على طلب العلم:

العلم ميراث النُّبوَّة؛ فمن سلك سبيله؛ فقد أخذ بحظ وافر، فطالب العلم يجب أن يراعي آداب الطَّلب، ويصبر على لأواء الطريق، ويتجشم الصِعاب ليبلغ ما أراد.

وفي قصة موسى عليه السَّلام مع العبد الصّالح وهو الخضر، بيان لضرورة صبر طالب العلم، إن أراد أن يصل إلى بغيته، ويدرك غايته.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ

صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٥-٧٥].

قال رسول الله ﷺ بعد أن أخبر في حديث طويل بتفاصيل هذه الرحلة العلمية:

«يرحم الله موسى لو كان صبر يقصُّ علينا من أمرهما»(١).

أ - طالب العلم يجب أن يكون متواضعًا، فلا يدّعي أنه أعلم أهل زمانه، ولا يزعم أن ما عنده من علم أوتيه من عند نفسه.

ولذلك أراد الله أن يؤدب موسى - عليه السلام - وهو نبيه وكليمه الذي أجاب على سؤال: لا أعلم على الأرض أعلم مني.

لقد كان يجبُ أن يرد علم ذلك إلى الله؛ لأنه لا علم للبشر إلا ما علمهم الله؛ وفوق كل ذي علم عليم.

فلعل هذا المقصد الرَّباني يرسخ في قلوب كثير من طلبة العلم الذين لم يروا إلا أنفسهم؛ فراحوا يقسمون رحمة الله بين عباده مخدوعين بما يرونه من كثرة العرض لبعض الناس، أو لأنفسهم متناسين أن العلم لا يقاس بالكَمِّ، ولكن بالكيف.

ب - طالب العلم يجب أن يصبر ويصابر فلا يستعجل؛ لأنَّ من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٣١ - ٧٣٣ - الفتح) وغيره.

ت ـ طالب العلم يجب أن يلتزم مع شيخه بما عقد معه من شرط؛ فالمؤمنون عند شروطهم.

ث ـ يجب أن يراعي الشيخ ضعف تلميذه؛ فلا يؤاخذه من أول عثرة بل عليه أن يذكره، ويتعهده بالإرشاد.

وفي هذه القصة القرآنية التي فصلتها السُّنة النَّبوية الصَّحيحة أمور عظيمة أدغمتها لا تخفى على طلبة العلم عند التأمل والتدبر.

ولقد صنف أهل العلم من هذه الأمة تصانيف طيبة تعالج آداب طلبة العلم وصفات المتعلم وأخلاقه منها: «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، و «والفقيه والمتفقه»، و «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، وغيرها كثير طيب.

❊ ❊ ❊

٧ ـ فضائل الصبر

رتَّب الله تبارك وتعالى خيرات الدُّنيا والآخرة على الصَّبر فكل خير ترتجيه وكل شر تهرب منه منوط بالصَّبر.

١ ـ ٧ ـ معية الله مع الصابرين؛ لقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد ذكرت هذه المعية في عدة مواطن من كتاب الله.

٢ ـ ٧ ـ محبة الله للصَّابرين؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٣ ـ ٧ ـ صلوات من الله ورحمة على الصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ـ١٥٧].

ففي هذه الآية الكريمة جمع الله للصَّابرين الصَّلوات من الله، والرَّحمة، وضمن لهم الاهتداء، وزفَّ لهم البشرى.

٤ ـ ٧ ـ ضمان النَّصر والمدد للصَّابرين؛ كما في قوله تعالى:

﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٥ـ١٢٦].

وقال ﷺ: «النصر مع الصبر»(١).

٥ ـ ٧ ـ الوصول إلى منزلة الإمامة في الدين:

قال العالم الرَّباني شيخ الإسلام الثَّاني ابن قيم الجوزيَّة في كتابه الموسوم بـ«مدارج السالكين» (٢/ ١٥٤):

«سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]».

٦ ـ ٧ ـ الحفظ من كيد الأعداء:

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٧ ـ ٧ ـ الانتفاع بالصبر والاتعاظ بآيات الله في الآفاق والأنفس، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢ـ٣٣].

٨ ـ ٧ ـ استحقاق الصَّابرين دخول الجنَّة، وذلك الفوز العظيم.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ـ٢٤].

---

(١) مضى تخريجه.

هذه الفضائل يسير من كثير، فلا جرم أن يكون الصَّبر ضياء ونورًا في الأرض وذخرًا في السماء.

ولله در القائل:

الصَّبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته لكنَّ عواقبه أحلى من العسل

* * *

٨ ـ أمور تعين على الصبر

لا يشك ذو مسكة عقل أن الصبر مُّر المذاق، صعب على النَّفس البشرية؛ لأنه يفطمها على مألوفاتها ورغباتها، لذلك فلابدَّ من تعويدها عليه شيئًا فشيئًا حتى تستسغيه وتعض عليه بالنواجذ عند المصائب والفتن.

ودونك جملة من الأمور تعين على الصبر، وتهونه على النفس، وهي:

١ ـ ٨ ـ معرفة طبيعة الحياة الدنيا:

لعل أقرب أمر يعين الإنسان على الصبر ويحمل النفس عليه هو تصور الحياة التي يعيش فيها، ومعرفتها على حقيقتها وواقعها، فهي ليست جنة نعيم، ولا دار مقامة، وإنما ممر ابتلاء وتكليف، لذلك فالكيِّس الفطن لا يفاجأ بكوارثها، فالشيء من معدنه لا يستغرب.

ولله در القائل:

إن لله عبادًا فطنا طلقوا ... الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنَّها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح ... الأعمال فيها سفنا

وربُّ العالمين يشير إلى أن حياة الإنسان محفوفة بمخاطر مملوءة بالمتاعب في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

فها هي الدنيا كما وصفت لا تستقيم على حال، ولا يقر لها قرار، فيوم لك وآخر عليك، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد أحسن أبو البقاء الرُّندي القائل:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأيام كما شاهدتها دول ... فمن سره زمن ساءته أزمان

وليعلم العبد الصَّالح أنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى : إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن سرور الدنيا أحلام نائم، وظل زائل، وسحابة صيف؛ إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرًا، وإن سرت يومًا أساءت دهرًا، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً .

٢ ـ ٨ ـ اليقين بحسن الجزاء عند الله :

إذا علم العبد أن الصَّابرين ينتظرهم أحسن الجزاء عند الله حين يرجعون إليه، ويقفون بين يديه؛ فيعوضهم عن صبرهم خيرًا، ويمنحهم أجرًا، ويجزل لهم المثوبة، فإنه لا شك يتصبر ويرضى بما قدره الله، ولا يجد المتتبع لآيات القرآن الكريم شيئًا ضَخُم جزاؤه، وعَظُم أجره مثل الصَّبر .

فها هو يتحدث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم :

﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٨ـ٥٩] .

ويبين أن جزاءهم يكون بأحسن ما كانوا يعملون :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٦٩] .

ويصرّح أن أجر الصَّابرين غير معدود ورزقهم غير محدود :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ٠١] .

٣ ـ ٨ ـ معرفة الإنسان نفسه :

الله سبحانه وتعالى هو الذي منح الإنسان الحياة فخلقه من عدم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فهو ملك لله أولاً وآخرًا، لذلك فإذا نزل بالعبد نازل سلبه شيئًا مما عنده، فإنما استرد صاحب الملك بعض ما وهب، ولا ينبغي

للمودع أن يسط على صاحب العارية إذا استردها.

وصدق لبيد بن ربيعة رضي الله عنه القائل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابدَّ يومًا أن ترد الودائع

وفي قصة أم سليم مع زوجها أبي طلحة دليل واضح على فهم السَّلف الصَّالح رضوان الله عليهم، لهذه الحقيقة حيث عرفوا أنفسهم؛ فعرفوا مقام ربهم، وقدروه حقَّ قدره.

عن أنس رضي الله عنه قال:

مات ابنٌ لأبي طلحة من ام سُليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه.

قال: فجاء فقرَّبت إليه عشاء فأكل وشرب، فقال: ثم تصنَّعت له أحسن ما كان تصنَّع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت قد شبع وأصاب منها.

قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت؛ فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا.

قالت: فاحتسب ابنك.

فقال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطَّخت ثم أخبرتِني بابني؛ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ؛ فأخبره بما كان.

فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**».

قال: فحملت، قال: فكان رسول الله ﷺ، في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا فدنوا من المدينة فضربها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ.

قال: يقول أبو طلحة إنك لتعلم يا ربِ أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا

خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى.

قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد، انطلق؛ فانطلقنا.

قال: فضربها المخاض حين قدما، فولدت غلامًا.

فقالت لي أمّي: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ، فلما أصبح احتملته، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال: فصادفته ومعه ميسم، فلما رآني قال: «لعل أم سُليم ولدت».

قلت: نعم فوضع الميسم، قال: وجئت به فوضعته في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة؛ فلاكها في فيه حتى ذابت ثم قذفها في فيِّ الصبي يتلمظها.

قال: فقال رسول الله ﷺ:

«**انظروا إلى حبِّ الأنصار التَّمر**»، قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله.

[قال سفيان: قال رجل من الأنصار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن](١).

وهذه المعاني قبس من قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

هذه الكلمة الطيبة تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلَّى

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٦٩و ٩/ ٥٨٧- الفتح)، ومسلم (٦١/ ١١-١٣- نووي)، واللفظ له.
وما بين معكوفتين زيادة للبخاري في الموطن الأول.

عن مصيبته:

إحداهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عزَّ وجلَّ حقيقة.

الآخر: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق؛ ليوفيه حسابه.

فإذا كانت هذه بداية العبد ونهايته، فكيف يفرح بوجود أو يأس على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده أعظم معين على التحلي بالصبَّر عند الشدائد، والمصائب، والمحن، والفتن، فاللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

٤ ـ ٨ ـ اليقين بالفرج:

لا يشك العاقل أن نصر الله قريب، وفرجه آت لا ريب فيه، وأن بعد الضيق سعة، ومع العسر يسرًا؛ لأن الله وعد بهذا، والله لا يخلف الميعاد.

وهذا اليقين جديد أن يبدد ظلمة القلق، ويقهر شبح اليأس، ويضيء نفس المؤمن بنور الصبر الذي لا يخبو.

ولذلك ورد الصّبر في كتاب الله مقرونًا بأن وعد الله حق، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقد وعد الله عباده الصَّابرين بقرب الفرج في صور شتى منها:

١ ـ الوعد بالسعة بعد الضيق، والرَّخاء بعد الشدة، واليسر بعد العسر، وفي هذا يقول جلَّ وعلا: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

ولم يكتف الخالق سبحانه وتعالى أن جعل اليسر بعد العسر بل جعله في موطن آخر معه وبصفة التأكيد حيث قال: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ

يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٥ـ٦].

وفي هذه الآيات يتجلى أمران:

أ ـ تحقق اليسر بعد العسر تحققًا قريبًا حتى كأنه معه ومتصل به، حتى لو دخل العسر جحر ضب لتبعه اليسر، ولن يغلب عسر يسرين.

ب ـ أن مع العسر يسرًا بالفعل، ولكن قد يكون ملموسًا أو مكنونًا؛ ففي كل قدر لطف، وفي كل بلاء نعمة.

ولا يشك مؤمن عرف ربه وآمن به أن الله يقدر ويلطف:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

لأنه أعلم بمن خلق وأرحم بهم من أنفسهم: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٢ ـ الوعد بحسن العاقبة، والعبرة بالعواقب، والمدار على الخواتيم.

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

ولقد أحسن القائل:

اشتدي أزمة تنفرجي ... قد آذن ليلك بالبلج

ولله در القائل:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

٣ ـ الوعد بحسن العوض عما فات؛ فإنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ

وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

٥ ـ ٨ ـ الاستعانة بالله.

إذا استعان العبد بربه، ولجأ إلى حماه شعر بالطمأنينة في قلبه، والسكينة تملأ جوارحه؛ فمن كان في حمى الله فلن يضام.

قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن كانت معية الله معه، وعين الله ترعاه؛ فهو حقيق أن يتحمل المتاعب، ويصبر على الأذى.

٦ ـ ٨ ـ التأسي بأهل الصَّبر والعزائم.

إنَّ التأمل في سيَّر الصَّابرين، وما لاقوه من ألوان الشدائد، وما ذا قوة من صنوف البلاء، يعين على الصبر، ويطفىء نار المصيبة ببرد التأسي.

ومن هنا حرص القرآن الكريم، والسُّنة النَّبوية على ذكر قصص الأنبياء، والصَّالحين، تسلية للنَّبي والمؤمنين، وتثبيتًا لقلوبهم في مواجهة البلاء والفتن.

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ويجيء الخطاب الرّبّاني لرسول الله ﷺ قائلاً: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فإذا ضاق صدره بما يفعلون، وأدركه الحزن عليهم مما يمكرون، وجد في صبر إخوانه من المرسلين ما يشد أزره، ويمضي عزمه، ويذهب همه، فهو ليس بدعًا مما أصاب الرسل من قبله، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن

نَبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

٧ ـ ٨ ـ الإيمان بقدر الله وقضائه:

على المسلم أن يعلم علم اليقين أن قدر الله نافذ لا محالة، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصّحف.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

إن الرّكون للصَّبر في مثل هذا المقام أمر محمود بل واجب؛ لأن المقادير نافذة سواء أرضي العبد أم سخط، صبر أم جزع، ولكن العاقل ينبغي أن يتحلى بالصَّبر حتى لا يحرم المثوبة، وإلا ستئول به السُّنن الكونية إلى صبر الاضطرار الذي لا قيمة له في دين الله كما بينا في شروط الصَّبر لقول النَّبيِّ: «**الصَّبر عند الصَّدمة الأولى**»(١).

وذلك لأنَّ العبد إن صبر إيمانًا واحتسابًا نفذت فيه المقادير وله الأجر، وإن جزع وهلع وتبرم سلى سلو البهائم ونفذت فيه المقادير، وعليه الوزر.

إن التسليم بالقدر هو مقتضى العقل والدين معًا، وإلا فليفعل ما يشاء من إظهار الكآبة والمبالغة في التوجع والتشكي، ولن يغير من الواقع شيئًا، ولن يبدل سنن الله في الكون، وإنما يزيد نفسه كمدًا وغمًا وحسرة.

وانظر أيها العبد الصالح كيف يقرر الله هذه الحقيقة مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ حين آذاه موقف قريش وتكذيبها له: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ

(١) مضى تخريجه.

سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ـ٣٥].

وقال الله عز وجل للقانطين من رحمة الله اليائسين من نصره: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

٨ ـ ٨ ـ استصغار المصيبة:

قال ﷺ: **«إذا أصاب أحدكم مصيبة؛ فليذكر مصيبته بي؛ فإنها أعظم المصائب»**(١).

وكتب بعض العقلاء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له: محمد؛ فنظم الحديث الآنف شعرًا فقال:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم أن المرء غير مخلَّد
وإذا ذكرت محمدًا ومصابه ... فاذكر مصابك بالنَّبيِّ محمد

* * *

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٧٥)، والدارمي (١/ ٤٠) من طريق فطر بن خليفة عن عطاء بن أبي رباح مرفوعًا.
قلت: إسناده صحيح، ولكنه مرسل وله شاهد عن ابن ماجه (١٥٩٩) عن حديث عائشة رضي الله عنها.
قلت: وإسناده ضعيف من أجل موسى بن عبيدة.
وله شاهد آخر مرسل: أخرجه ابن سعد (٢/ ٢٧٥)، وابن المبارك في الزهد (٤٦٧).
قلت: هو صحيح مرسل.
ومرسل آخر عن عبد الرحمن بن سابط: أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٢٧١).
وبالجملة؛ فالحديث صحيح بهذه الشواهد، والله أعلم.

٩ ـ عقبات في طريق الصبر

لابد لمن أراد أن يعتصم بعروة الصبر الوثقى أن يحذر من الآفات التي تعتري النفس البشرية؛ فتعيق الصبر، وتعترض طريقه. وهي:

١ ـ ٩ ـ الاستعجال:

الإنسان مولع بالعاجل؛ لأنه خلق من عجل؛ كما في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

فإذا أبطأ الخير عن الإنسان نفذ صبره، وضاق صدره ناسيًا أن لكل أجل كتابًا مسمى، وأن الله لا يعجل بعجلة الخلق.

وليعلم العبد أن لكل ثمرة أوان لنضوجها؛ فيحسن عندئذٍ قطافها، والاستعجال لا ينضجها بل يهلكها، وقديمًا قيل: من استعجل الشيء قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه.

ولهذا خاطب الله رسوله قائلاً: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

والاستعجال من سنن المشركين لجهلهم وسفههم، فقد كانوا يستعجلون عذاب الله غرورًا وعنادًا، فردَّ الله عليهم بما يقطع دابرهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

٢ ـ ٩ ـ الغضب:

قد يرى المسلم ما يكره، ويسمع ما يؤذيه؛ فيستفزه الغضب إلى الإعراض عن الناس والنفور منهم، ومن ثم إلى اليأس والقنوط وهما آفة الصَّبر.

فيجب على المسلم أن يصبر على أذى الناس وإعراضهم عن دعوته، ويعاودهم المرة بعد المرة عسى أن يهدي الله به رجلاً واحدًا فيكون خيرًا له مما طلعت عليه الشمس.

٣ ـ ٩ ـ الضِّيق:

قال الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

إن الإيمان والكفر والهدى والضلال لا يستطيع الإنسان أن يجلبها لمن أحب ويدفعها عنه، وإنما عليه التّذكير والنّصيحة والبيان والبلاغ.

٤ ـ ٩ ـ اليأس.

اليأس آفة الصبر الكبرى؛ لأنها تطفئ سراج الأمل؛ فيترك العبد العمل، ويخلد إلى الكسل.

ولهذا حرص القرآن الكريم والسنة المطهرة على غرس بذور الأمل في نفوس المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال جلَّ جلاله مخبرًا عن موسى وقومه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ـ١٢٩].

وعلى منهج القرآن في إضاءة شعلة الأمل أمام المؤمنين درج رسول الله ﷺ عندما جاءه خباب بن الأرت رضي الله عنه يشكو ما يلاقيه المؤمنون من أذى المشركين شكوى تحمل معنى الضيق والتبرم والاستعجال؛ فضرب له رسول الله ﷺ مثلاً فقال:

«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصدفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الركاب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه (وفي رواية: ولكنكم تستعجلون)»[١].

وما ذلك إلا لأن الأمل أعظم معوان على الصَّبر على طول الطريق وقلة الرفيق، وبخاصة في زمن الغربة الذي نعيشه؛ فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، وأفرغ علينا صبرًا، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصّالحين.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري(٧/ ١٦٤ـ١٦٥ـ الفتح) وغيره.

١٠ـ الأنبياء صبروا

عني الكتاب: والسُّنة بفضيلة الصبر، وحرصًا على توجيه المؤمنين للتحلي به وممارسته خلقًا وسلوكًا؛ فعرض أمثلة رائعة لتطبيق الصَّبر في مجالاته المتعددة، وألوانه المتنوعة، منها:

١ ـ ١٠ ـ أيوب عليه الصلاة والسلام.

لقد قرن اسم أيوب عليه السلام بالصبر؛ فكلما ذكر أحدهما ذكر الآخر، وأصبح اسمه مضرب الأمثال؛ فقالوا: «صبر أيوب».

وكان صبره عليه الصلاة والسلام على ما أصابه من ضُرٍّ في بدنه، وفقد أهله.

قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ـ٨٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص ٤١ـ٤٤].

لقد جعل الله سبحانه وتعالى أيوب عليه السلام موضع الأسوة والاقتداء فيما اختص به من فضيلة بقوله تعالى: ﴿واذكر﴾ وشرَّف الله تعالى أيوب عليه السلام؛ فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب بقوله: ﴿عبدنا﴾.

ورفع الله منزلته حين استجاب نداءه؛ فرد عليه عافيته وأهله ومثلهم معهم، وجعل له مخرجًا من يمين حلفه تخليصًا له من مأزق الحنث، وتكريمًا له على صبره الجميل، وشهد له شهادة حق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وقد قص علينا رسول الله ﷺ طرفًا من صبره؛ فقال:

«إن نبي الله أيوب ﷺ لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان عليه ويروحان.

وقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين.

فقال له صاحبه: وما ذاك؟.

قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله؛ فيكشف ما به.

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان؛ فيذكران الله؛ فأرجع إلى بيتي؛ فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في الحق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحي إلى أيوب أن ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحًا؟

فقال: فإني أنا هو.

وكان له أندران ـ أي بيدران ـ : أندر للقمح، وأندر للشعير؛ فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندار القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض»(١).

---

(١) صحيح ـ أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣٦١٧)، وأبو نعيم في «الحلية»، (٣/ ٣٧٤ـ٣٧٥)، والحاكم (٢/ ٥٨١ـ٥٨٢)، وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم. من طرق عن نافع بن يزيد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب عنه به.
قلت: إسناده صحيح، ورواته رجال الشيخين غير نافع بن يزيد، وهو ثقة أخرج له مسلم فقط.

هذا وقد حكت الإسرائيليات والروايات الواهية أخبارًا لا تصح حول صبر أيوب على ما مّسه من ضر تلقفها الخيال الشعبي؛ فقال ما ليس له به علم، وأضاف وزاد، والله أعلم بالمراد.

ولكن عجبي لا ينقضي من بعض المفسرين الذين أوردوا تلك القصص والحكايات غير المسندة دون تعليق أو تحقيق؛ فصبر جميل، والله المستعان، وعليه التكلان.

ولعل الله عزَّ وجلّ ييسر لهذه التفاسير من يقوم على تصفيتها من هذا الدخن.

٢ ـ ١٠ ـ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ.

لقد امتحن يعقوب عليه الصلاة والسلام بفراق أحبِّ أبنائه إليه.

ولم يكن فراق يوسف أمرًا هينًا أو خطبًا يسيرًا للآتي:

١ ـ لقد كان يوسف عليه الصلاة والسلام مضرب الحسن والجمال، فقد آتاه الله شطر الحسن، ومن طبيعة الجمال أن يُحبَّ.

٢ ـ ولم يكن فراق يوسف عليه الصلاة والسلام كأى فراق آخر بين شخصين يعرف كلاهما موطن صاحبه، ويرجو أن ينتهي الفراق بلقاء قريب.

وإنما كان فراقًا بعد مؤامرة ادُّعي فيها موت يوسف مقتولاً.

٣ ـ ولم تكن تلك المؤامرة من أعداء غرباء أو قطاع طرق أشقياء، وقد يهون الخطب شيئًا يسيرًا على النفس، لكن جاء الكيد والمكر والخداع من إخوة لأخيهم، والكذب من أبناء على أبيهم، وقد قيل:

وظلم ذوي القربي أشدُّ مضاضة على النَّفس من وقع الحسام المهند

ومع هذا كله اعتصم يعقوب عليه السلام بالصَّبر الجميل أولاً وآخرًا مستعينًا بالله؛ فقال بعد فراق يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا

تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨].

وقد قال بعد فراق ابنه الثاني : ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف : ٨٣].

لقد كان صبر يعقوب عليه السلام ليس صبر اليائس القانط إنما صبر الآمل الراجي فضل الله، الواثق أن مع العسر يسرًا، وبعد الفرقة اجتماعًا : ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧].

ومن رحمة الله بعباده أنه قدر ضعف الإنسان فلم يلم يعقوب عليه السلام على ما أبداه من أسف على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن بل بقي في درجة أولي الأيدي والأبصار.

ولذلك فإن العبد لا يخرج عن الصبر بكراهية النفس ولا ألم القلب، وسيأتي تفصيله إن شاء الله.

٣ ـ ١٠ ـ صبر أولي العزم من الرسل :

وكان صبرهم ـ صلى الله عليهم وسلم ـ من أعلى أنواع الصبر؛ لأنّه تمثل في الثبات على الحق، وتحمل مشاق الدعوة إلى الله.

وهذا النوع من الصَّبر هو صبر على تكميل الآخرين، ولا شك أنه أرقى من الصبر على تكميل النفس؛ لأن تكميل الآخرين لا يقوم به إلا الكُمّل من المؤمنين، والخلَّص من الدُّعاة الغيورين.

إنّه صبر صفوة الأنبياء والمرسلين أمر الله خاتم رسله وصفوة خلقه ورحمته إلى العالمين أن يتخذ منهم أسوة في صبرهم حين قال : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف : ٣٥].

أ ـ لقد لبث نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا في قومه يدعوهم إلى الله سرًّا وجهارًا، وليلاً ونهارًا، وتبشيرًا وإنذارًا، فلم يجد منهم إلا الإصرار والاستكبار، والسخرية والاستهزاء، ومع ذلك يمضي نوح عبر هذه السنين المتوالية، والأجيال المتلاحقة، دون كلل أو ملل، وكلما أعرض قومه غير وبدل في أسلوبه.

وفي جميع الحالات كان رحيمًا بهم خائفًا عليهم عذاب يوم بئيس.

لقد كان نوح ﷺ قمة في الصَّبر، وآية في الحلم والأناة وسعة الصدر، وأمَّة في الجد والمثابرة، بذلك أخبر الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

ولم يكن صبر نوح على قومه بل تعداه إلى أهل بيته، وهذا من الشدائد والفتن التي لا يلقاها إلا الصَّابرون.

فداعي الله قد يبتلى بقومه وأصدقائه؛ فيعاني منهم ما يعاني، لكنه إذا عاد إلى بيته وجد الراحة والطمأنينة، وهذا الذي كان يلقاه خاتم الأنبياء في كنف زوجه خديجة رضي الله عنها.

أما نوح عليه السلام، فقد ابتلاه الله بقومه وأهل بيته، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ولم تكن مصيبة نوح بزوجه آخر مصائبه في بيته، لقد رفض ابنه الإسلام، وأعرض عن أبيه، ووقف في صفِّ المشركين.

ويحاول نوح عليه السلام انقاذ ابنه من براثن الشرك والوثنية، ويخلصه من مخالب الشيطان، ولكن هيهات، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

لقد ابتلي نوح فصبر، ودعا ربه فانتصر، وآتاه الله خيرًا مما أخذ منه.

فإذا أخذ الله من نوح ولدًا كافرًا، فقد أبدله ربه خيرًا منه زكاة، وأقرب رحمًا، فكتب البقاء لذريته ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصَّافات: ٧٧].

ب ـ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام استمر في دعوة قومه الذين أصروا على ضلالهم حتى كانت واقعة تحطيم الآلهة وتكسير الأصنام؛ فاجتمع القوم لينتقموا لآلهتهم منه، وأرادوا أن يحرِّقوه في النَّار؛ كما حَرَّق قلوبهم على أصنامهم.

وأُخِذَ إبراهيم ﷺ وأُلقي في النَّار، فما اضطرب ولا جزع ولا التجأ إلى غير الله بل قال: «حسبنا الله».

ولم يكله الله إلى نفسه، ولا إلى أحد من خلقه، فكانت النَّار كما أراد الله وليس كما أراد أعداء الله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

وكما أن نوح ابتلي بكفر زوجه وابنه فقد ابتلي إبراهيم عليه السلام بكفر أبيه آزر؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

وامتحن عليه الصلاة والسلام بأن يذبح ابنه اسماعيل الذي هو بكْره ووحيده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٧].

إن القلم ليقف حيران أمام جواب الذّبيح: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وإنَّ القلم ليتعثر حياءً أمام الاستطراد في تصويرها، وشرح بلاغتها وتقريبها من النّفوس.

عرض من الأب في غاية السهولة، ولكنه يتضمن أمرًا عظيمًا ألا وهو بذل الروح طاعة لله.

ولو قال لابنه: اذهب للجهاد في سبيل الله، وأرجو الله أن يشرفني بقتلك لَهانَ الأمر؛ لأن الأعداء هم الذين سيقتلونه... وأما في هذا المقام فالوالد الحليم الأواه المنيب هو الذي سيقتل ابنه الصابر الصادق... سيقتله ذبحًا دون إثم اقترفه أو بهتان افتراه.

تُرى ماذا كان موقف الفتى الذي نشأ في أحضان امرأة كانت ثقتها بالله واستسلامها لأمره أكبر وأعظم من الوصف.

لقد حسم الموقف: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إفعل ما تؤمر:

لا تأخذ رأيي، ولا تنتظر مشورتي بل نفذ ما أمرك الله به دون هوادة ولا إبطاء.

افعل ما تؤمر:

هذا هو الإسلام: انقياد، وطاعة، وامتثال، واستسلام، وتنفيذ...

ولكن ليس للجبابرة والطواغيت بل لله رب العالمين.

افعل ما تؤمر:

لأن تنفيذ أمر الله أهم من حياتي في هذه الدنيا.

افعل ما تؤمر:

لأن الله اختارنا حملة رسالة، ولن نتردد في بذل النفس والنفيس في سبيل الله.

افعل ما تؤمر:

وستجدني بمشيئة الله صابرًا محتسبًا.

وينتقل الاثنان من القول إلى العمل، ويكون الابتلاء قد بلغ غايته وحقق ثمرته؛ فلا غرو أن جاءت البشرى من السماء: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

ت ـ وموسى كليم الله بعثه الله ليواجه طغيان فرعون وجبروت هامان، وكبرياء قارون.

فما أن بلَّغ موسى رسالة ربه، حتى طفق فرعون يرغي ويزبد، ويهدد ويتوعد؛ تارة بالسجن: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وطورًا بالقتل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ويصبر موسى على هذا كله، ويوجه قومه إلى معين الصَّبر؛ ليغترفوا منه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ث ـ وعيسى بن مريم روح الله، وكلمته بعثه الله إلى بني إسرائيل فلم يجد من أحبارهم إلا التكذيب والعصيان والمؤامرات التي كان ثمرتها أنهم قرروا قتله

وصلبه، ولكن الله أحبط سعيهم وخيَّب ظنهم؛ فقال: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٦-١٥٧].

لقد وضع الله سبحانه وتعالى هذه النماذج أمام رسوله محمد ﷺ، لتكون له زادًا ورصيدًا وهو يحمل دعوة عالمية للناس كافة إلى قيام الساعة: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

❊ ❊ ❊

١١ ـ أمور لا تنافي الصبر

١ ـ ١١ ـ الشكوى إلى الله .

التضرع إلى الله والالتجاء إليه ودعاؤه في أوقات الشدة عبادة عظيمة ؛ لأن العبد يظهر عبوديته لله ، وحاجته لربه ومسكنته بين يديه .

وقد تَحِلُّ بالإنسان مصيبة ؛ فيشكو همّه ويبث حزنه إلى الله ، وهذا المقام لا ينافي الصبر ولا يخدشه .

فإن يعقوب عليه الصلاة والسلام وعد بالصّبر الجميل فيما أخبره الله عنه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] .

وقال أيضًا : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣] .

والنبي إذا وعد لا يخلف ، ومع ذلك أخبر الله عنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

وأيوب عليه الصلاة والسلام أخبر الله سبحانه وتعالى عنه أنه من الصابرين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

ومع ذلك فقد شكا مصيبته إلى الله حين ناداه : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : ٤١] .

وفي موضع آخر : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

ولذلك إذا أصاب العبد مصيبة وطلب من الله كشفها ، أو تخفيفها ، لا ينافي الصبر بل هو مقصد من مقاصد الابتلاء .

وإذا فقد ضالته؛ فطلب من الله أن يردها عليه؛ فلا يخدش مقام الصبر الجميل.

وإنما ينافي الصبر شكوى الله للعباد، وإظهار الجزع والتبرم والتضجر والتأفف، كما قدمنا في «شروط الصبر».

فإذا علمت أيها العبد الطائع هذا المقام تبين لك ضلال قول القائلين: سؤالك الله اتهام لله، تعالى الله عما يصفه الجاهلون علوًا كبيرًا.

وهم يحتجون بما أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام عندما رموا به في النَّار؛ فاستقبله جبريل فقال:

يا إبراهيم ألك حاجة؟

قال: أمَّا إليك فلا.

قال جبريل: فسل ربك؟

فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي[1].

---

(١) هذا الحديث لا أصل له، وإنما هو من الإسرائيليات.
أورده البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٠) مشيرًا إلى ضعفه، وأنه من الإسرائيليات حيث عزاه إلى كعب الأحبار.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٣٩):
«ومن هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقي في النار قال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا. قال: سل. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.
وأول هذا الحديث معروف، وهو: أمّا إليك فلا، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أنه قالها إبراهيم حين ألقي في النَّار، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: إن النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم.
وأما قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي؛ فكلام باطل، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم الله ومسألتهم إياه.
وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة؛ كقولهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة =

٢ ـ ١١ ـ الحزن ودمع العين.

عن أنس رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين ـ وكان ظئرًا لإبراهيم عليه السلام ـ فأخذه رسول الله ﷺ؛ فقبله وشمَّه.

ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه؛ فجعلت عينا رسول الله تذرفان.

فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟

فقال: «يا ابن عوف إنّها رحمة».

ثم أتبعها بأخرى فقال: «إنَّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

* * *

= مشروعة بأسباب كما يقدره بها، فكيف يكون مجرد العلم مسقطًا لما خلقه وأمر به، والله أعلم».

وقال ابن عرّاق في «تنزيه الشريعة»(١/ ٢٥٠) نقلاً عن ابن تيمية: «موضوع».

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٧٢-١٧٣- الفتح)، ومسلم (٢٣١٥) وغيرهما.

الخاتمة

رزقنا الله الحسنى وزيادة

واعلم أيها الأخ الأصفى، والصّديق الخالص الأوفى: أن مقام الصَّبر تفاوتت فيه عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال؛ فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول.

وهذه حال من وقف على ظواهر الأمور، وأما الذي خرق ببصر ثاقب حجب العاجلة؛ فإنه يسعى حثيثاً لبلوغ الآجلة.

فادع نفسك أيها الأخ إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم، وكل يعمل على شاكلته، ويصبو إلى ما يناسبه وما هو أولى به.

ولا تستطل هذا المقام؛ فإنه هو الفارق الأكبر، والترياق الأعظم.

ولله در القائل:

فالصَّبر طلسمُ على كَنز العُلى ... من حلَّ ذا الطَّلسم فازَ بكنزه

وعلى الله قصد السبيل

سلسلة نحو أخلاق السلف (٤)

التَّوَاضُعُ

فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ




من أنوار التنزيل

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

[الفرقان: ٦٣]

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله، ونحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن آفة الكِبْر عظيمةٌ، وفيه يَهْلِكُ الخواصُّ، وقلما ينفكُّ عن العُبَّاد والزُّهاد والعلماء، بل العامة، وحسبك ما وقع لعدو الله إبليس ـ لعنه الله ـ لما تكبَّر حَسَدًا، فبغى، فعصى، ثم أدبر يسعى مكرًا وغدرًا.

ومن تَأَمَّلَ سيرة السلف الصالح الأُول الذين سبقونا بالعلم والإيمان وجدهم يُرَوِّضُون أنفسهم على خُلُقِ التواضع العظيم الذي يجتث بذرة الكبر من أصلها، فتغدو النفس مخبتةً خاشعة؛ فإذا نزلت عليها آيات الله اهتزت وربت وأنبتت طيباتٍ طَلْعها نضيد.

ولما رأيت الأمر كذلك، سطرت هذه الرسالة الموسومة: «التَّوَاضُعُ في ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ» لعلها تكون للمتواضعين إمامًا يهدي للتي هي أقوم بالتي هي أحسن.

وأرجو الحق تبارك وتعالى أن يكتب لها القبول الحسن بين الخلق، وأن يدخر لي ثوابها إلى يوم لقائه؛ يوم يرفع المتواضعين إلى عليين ويُكِبُّ المتكبرين في سواء الجحيم.

ومن وجد فيها خيرًا، فليحمد الله، ولا ينسانا من دعاءٍ صالح، ومن وجد غير ذلك، فلا يَأْلُ جهدًا في تذكيري؛ فإن ذلك من ضعفي وتقصيري.

وعلى الله قصد السبيل

وكَتَبَهُ

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ليلة الأربعاء، ليلةٍ بقيت من ذي القعدة المحرم

سنة ألف وأربع مائةٍ وثمانٍ من هجرة محمد رسول الله ﷺ

في عمان البلقاء، عاصمة الأردن

[١] التَّوَاضُعُ لُغَةً

التَّوَاضُعُ: هو التذلل والتخاشع

وأصله: تواضعت الأرض؛ أي: انخفضت عما يليها، وكأن المتواضع بخشوعه، وسكينته تراه من بعيد لاصقًا بالأرض، بينما المتكبر؛ بتعاليه؛ كأنه يَطَّاوَلُ شموخًا؛ ولهذا يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

* * *

[٢] التَّوَاضُعُ شَرْعًا

اعلم أيها العبد المتواضع :

أن التواضع خُلقٌ سَنِيٌّ يشمل خيرات كثيرة ؛ فهو خضوعٌ للحق، وانقيادٌ له، وقبوله ممن قاله في الرضا والغضب .

وهو خفض الجناح، ولين الجانب .

وهو أن لا ترى لنفسك قيمة فوق العباد .

وهو أن لا ترى لأحدٍ إلى نفسك حاجة .

* * *

[٣] أَنْوَاعُ التَّوَاضُعِ

اعلم أخا الإيمان:

أن التواضع على ضربين: أحدهما محمود، والآخر مذموم.

أما التواضع المحمود: فهو تواضع المرء لله، وترك التطاول على عباده والازدراء بهم.

وأما التواضع المذموم: فهو تواضع المرء لذي الدنيا؛ رغبةً في دنياه.

ولذلك؛ فإن العاقل من فارق التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يترك التواضع المحمود على الجهات كلها.

* * *

[٤] شُرُوطُ التَّوَاضُعِ

اعلم أيها العبد المتواضع:

أن هذا الخلق الرباني العظيم لا يصح إلا بشرطين.

١ ـ ٤ ـ الإِخْلَاصُ لله:

قال ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ»[١].

٢ ـ ٤ ـ الْقُدْرَةُ:

قال ـ ﷺ ـ «مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لله، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ؛ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»[٢].

* * *

(١) سيأتي خريجه.
(٢) سيأتي تخريجه.

[٥] أَبْوَابُ التَّوَاضُعِ

٥ ـ ١ ـ التَّوَاضُعُ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تواضع العبد لربه عندما يأتي من الطاعات غير معجب بفعله، ولا راءٍ له حالة توجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو الذي يتفضل عليه بذلك.

الآخَرُ: هو ازدراء المرء نفسه عند ذكره ما قارف من الآثام؛ حتى لا يرى أحدًا من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات، وفوقه في الجنايات.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال مجاهد: متواضعين[١].

٥ ـ ٢ ـ التَّوَاضُعُ في اللِّبَاسِ:

قال ﷺ: **«مَن تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لله، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ؛ حَتَّى يُخَيِّرُهُ مِن أيِّ حُلَلِ الإيمانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»**[٢].

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، (٣/ ٢٠٣)؛ و«الدر المنثور»، للسيوطي، (٥/ ٦٧١).

(٢) أخرجه الترمذي، (٢٤٨١)؛ وأحمد، (٣/ ٤٣٩)، والحاكم، (٤/ ١٨٣)، وأبو نعيم في «الحلية»، (٨/ ٤٨)، من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهني، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.
قال الترمذي: «حديث حسن».
قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.
قلت: القول ما قال الترمذي؛ فإن أبا مرحوم أورده الذهبي في «الضعفاء»، وضعفه أبو =

٣ ـ ٥ ـ تَوَاضُعُ أَهْلِ الْعِلْمِ:

ينبغي للعالم ترك الدعوى لما يحسنه، وترك الفخر بما يحسنه إلا أن يضطر إلى ذلك؛ لأنه حينئذ يكون مُحدِّثًا بنعمة ربه عنده على وجه الشكر لها.

وأفضح ما يكون للمرء دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماء ذلك، وقالوا فيه نظمًا؛ منه قول أبي العباس الناشي:

مَن تَحَلَّى بِغيرِ مَا كَانَ فِيهِ ... عَابَ مَنْ في يَدَيهِ مَا يَدَّعيهِ
وَإذَا حَاوَلَ الدَّعَاوَى لِمَا فِيهِ ... أَضَافُوا إِلَيْهِ مَا لَيْسَ فِيهِ
ويُحِبُّ الَّذي ادَّعَا مَا ادَّعَاهُ ... إِنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يُعْتَدِيهِ
وَمَحَلُّ الْفَتَى سَيَظْهَرُ في النَّا ... سِ وإن كَانَ دَائبًا يُخْفيهِ

وقال آخر:

مَن تَحَلَّى بِغَيرِ مَا فيهِ ... فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الامْتِحَانِ

= حاتم، وقال النسائي: «أرجو أنه لا بأس به» وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال الحافظ: «صدوق زاهد».
فمثله يميل القلب إلى تحسين حديثه؛ لأن الذين ضعفوه لم يفسروه، ولم يبينوا سبب ضعفه.
وتابعه زبان فائد، عن سهل بن معاذ به.
أخرجه الحاكم (١/ ٦١) وأحمد (٣/ ٤٣٨).
قال الحاكم: «ينفرد به زبان»، ولم يخرجاه.
قلت: «كأنه نسي طريق أبي مرحوم السابق».
وزبان ضعيف الحديث من قبل حفظه.
وتابعه محمد بن عجلان، عن سهل بن معاذ به.
وأخرجه أبو نعيم، (٨/ ٤٧)؛ وفيه بقية بن الوليد، وقد عنعنه.
وتابعه خير بن نعيم، عن سهل بن معاذ به.
وأخرجه أبو نعيم، (٨/ ٤٧)، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف من قبل حفظه.
فالحديث صحيح بهذه المتابعات.

وَجَــرَى فــي العُلُــومِ جَــرْيَ سُكَيــتٍ   خَلَّفَتْــهُ الْجَيِــادُ يَــوْمَ الــرِّهَــانِ

٤ ـ ٥ ـ تَوَاضُعُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ:

وينبغي لطلاب العلم أن يتواضعوا؛ لأن المتواضع منهم أكثر علمًا، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً، وأعمها نفعًا.

ولقد أحسن من قال:

وَأَحْسَــنُ مَقْـرُونَيْـنِ فـي عَيْـنِ نَـاظِـرٍ   جَـلاَلَـةُ قَـدْرٍ فـي خُمُـولِ تَـوَاضُـعِ

* * *

[٦] دَرَجَاتُ التَّوَاضُعِ

١ ـ ٦ ـ التَّوَاضُعُ لِلدِّينِ:

وهو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان؛ وذلك بثلاثة أمور:

أ ـ أن لا يعارض شيئًا مما جاء به رسول الله ﷺ بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فَالأُولَى: للمنحرفين من أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة.

وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل، قدمنا العقل، وعزلنا النقل؛ إما عزلُ تفويض، وإما عزل تأويلٍ.

وهذا ضربٌ من الجدال، والقول على الله بغير علمٍ، وقد تلقاها هؤلاء من الشيطان الذي كاد بها نفسه قبل أن يكيد للأبوين آدم وحواء، ومن ثم كيده لذريته وذرية آدم؛ فإن الله سبحانه وتعالى لما أمره بالسجود لآدم كان امتثال أمره، وطاعته وسعادته، وفلاحه، وعزه، ونجاته، فَسَوَّلَتْ له نفسه الجاهلة الظالمة أن السجود لآدم غضاضة عليه، وهضمًا لحقه؛ إذ يخضع ويقع ساجدًا لمن خُلِق من طين، وهو نار السموم؛ والنار بزعمه أشرف من الطين؛ فالمخلوق منها خيرٌ من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غَضَاضَةٌ عليه، وَهَضْمٌ لمنزلته، فلما قام بنفسه هذا الهوس مقرونًا بحسد آدم، لما رأي ربه خصه بأنواع الكرامة، فعندئذٍ بلغ الكبر من عدو الله كل مبلغ، فعارض النص الرباني بالمعقول الشيطاني ـ يزعمه ـ كما عَّلم أولياءه من المبطلين.

وقال كما أخبر العليم الحكيم عنه :

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] .

فأعرض عدو الله عن النص الصريح، وقابله الرأي الكاسد القبيح، ثم أردف معترضًا على الحكيم العليم الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيل ؛ فقال : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] .

ومعنى الاعتراض الشيطاني : أخبرني لم كرمته علي ؟

وغور هذا الاعتراض : أن الذي فعلته ليس بحكمةٍ ولا صواب، وأن العقل والحكمة يقتضيان أن يسجد هو لي ؛ لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة ؟ !

واستدل بتفضيل نفسه بِحُجَّةٍ داحضة ؛ حيث قرر تفضيل مادته، وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله .

هذا التفكير الشيطاني أورث صاحبه الامتناع عن السجود، ومعصية الرب المعبود ؛ فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته، لم يبلغ منه ذلك المبلغ، ومن كان هذا غشه لنفسه، فكيف يقبل العاقل منه ويسمع ويواليه ؟ !

ولما رأى عدو الله ذلك لم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزلة، ولكنه لقن حجته لأوليائه من الجن والإنس ؛ ليدحضوا الحق ؛ كما أخبر الله عنهم في كتابه المجيد : ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ [الكهف : ٥٦] .

وقال : ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ [غافر : ٥] .

ولكن هذه الحجة الشيطانية داحضة عند الله:

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ١٦].

ولكن الإنسان ينسى نفسه في أوقات كثيرة، ينسى أنه مخلوق ضعيف لا يقوم بذاته، ثم يروح ينتفخ، ويورم، ويتشامخ، ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمده من الشيطان الذي هلك بالكبر، ثم سلط على بني آدم، فأتاه من قِبَلِهِ.

لذلك تراه يجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة السليمة بلسانها، وهو يزعم أنه يناقش؛ لأنه لم يقتنع، ويجادل؛ لأنه غير مستعين.

ويا ليته كان جدالاً عن علمٍ ومعرفةٍ ويقين، ولكنه جدال بغير علم؛ جدال التطاول المجرد عن الدليل، وجدال الضلال الناشئ عن اتباع الشيطان، قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٣-٤].

والله البصير بعباده يقرر أنه الكبر - والكبر وحده -، هو الذي يحيك في الصدر، ويدعو صاحبه إلى الجدال فيما ليس فيه جدال بغير علمٍ، ولا هدًى، ولا كتاب منير.

الكبر والتعالي إلى ما هو أكبر من حقيقته، ومحاولة أخذ مكان أكبر من حجمه، ولا تؤهله له حقيقته، وليست له بَيِّنَةٌ يجادل بها، ولا برهان يصدع به، ولا حجة يتوكأ عليها، وإنما هو الكبر وحده.

قال السميع البصير:
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا

كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

فكان لزامًا أن يلجأ العبد إلى الله مستعيذًا به في مواجهة الكبر الذي لا يقوم على معرفة، ولا يستمد من كتاب ينير العقل، والقلب، ويوضح الحق، ويهدي إلى اليقين؛ لذلك فهو يعوض عن هذا بالعجرفة والصلف؛ فتراه مائلاً مزورًا بجنبه، متبجحًا بضلاله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨-١٠].

هذا الكبر الضالُّ المُضِلُّ لابد أن يُقمَعَ، ولابد أن يُحَطَّمَ؛ فالخزي هو المقابل للكبر. والله لن يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين، حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة ويركسها في الحمأة الوبيئة، وفي الكبر هذا كله وهو يتعب صاحبه، ويتعب الناس من حوله وهو يؤذي الصدر الذي يحيك فيه؛ فهو شرٌّ يستحقُّ الاستعاذة بالله منه، فيمتلئ الصدر تواضعًا، وخشوعًا لله رب العالمين.

وَالثَّانِيَةُ: للمتكبرين المنسبين إلى الفقه؛ حيث قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

وَالثَّالِثَةُ: للمتكبرين المنحرفين من الولاة الظلمة، والأمراء الجائرين.

الذين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة، قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة؛ فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر، والتواضع: التخلص من ذلك كله.

ب ـ أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين؛ بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك، فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه.

وقد أحسن القائل:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِن تَأْخُذُ الأذهَانُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الحَوَائِجِ وَالْفُهُومِ

وهذا الواقع في الواقع حقيقة، أنه ما اتّهَمَ أحدٌ دليلاً للدين، إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه؛ فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم، ولم تؤت مفتاحه بعد؛ لأنك لم تأخذ له السبيل السوي من الصدق، والإخلاص، والضراعة إلى الله مقلب القلوب، ولأنك لم تأخذ الأسباب المصفية لذهنك، المنظفة لقلبك من صدق التوجه إلى هدي رسول الله ﷺ؛ لتستأهل هذا الكنز، هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلى غيرك، فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فإن لم تفعل ذلك فلست على شيء، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

ت ـ أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة لا بباطنه ولا بظاهره، ولا بلسانه ولا بفعله.

واعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه، وشيخه، ومقلده، أو رأيه، ومعقوله، وذوقه، وسياسته، إن كان عند الله معذورًا ـ ولا والله ما هو بمعذور ـ؛ فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند الله وروسوله وملائكته والمؤمنين من عباده.

فواعجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خَالفها تقليدًا، أو تأويلاً، أو لغير ذلك، فكيف ضاق عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم

لأجل موافقته النصوص؟

وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه بالغوائل، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟

ورموه بدائهم وانْسَلُّوا منه لواذًا، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا.

واعلم أخا الإيمان أن هذه الدرجة لا تصح للعبد المتواضع إلا بأن يعلم أن النجاة من الشيطان والضلال، إنما هي في البصيرة؛ فمن لا بصيرة له، فهو من أهل الضلال في الدنيا، والشقاء في الآخرة.

وهذه البصيرة نور يجعله الله لمن أدمن النظر في أعلام الحق وأدلته، وتجرد لله من هواه، عندئذٍ يرزقه الله فرقانًا يفرق به بين الحق والباطل.

فإذا استنارت بصيرة العبد حصلت له ثقة بما هو عليه من العلم، وأنه مُقْتَبَسٌ من مشكاة النبوة وحينئذٍ ينبغي أن يستقيم قولاً، وعملاً، وحالاً؛ لأنه تبين حجة الله، فاتضح له بها ما كان مُشكِلاً عليه من علومه، وما كان معيبًا من أعماله.

٢ ـ ٦ ـ التَّوَاضُعُ لِلْخَلْقِ:

هو:

أ ـ أَنْ تَرْضَى بِمَنْ رَضِيَ بِهِ الحَقُّ لِنَفْسِهِ عَبْدًا ـ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ـ أَخًا لَكَ.
ب ـ أَنْ لا تَرُدَّ لِعَدُوِّكَ حَقًّا.
ت ـ أَنْ تَقْبَلَ مِنَ الْمُعْتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ.

فَأَمَّا الأُولَى: فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟! فعدم رضاك به أخًا ـ وقد رضيه مولاك الحق الذي أنت عبده عبدًا لنفسه ـ عين الكبر.

وأي قُبْحٍ أقبح من تكبر العبد على عبدٍ مثله؛ لا يرضى بأخوته، وسيده

راضٍ بعبوديته.

فيحصل من هذا: أن المتكبر غير راضٍ بعبودية سيده؛ إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده.

ولقد قدر الله في مواطن كثيرة من كتابه أخوة المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال عز ثناؤه:

﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولهذا أشار رسول الله ﷺ قائلاً:

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ» (١).

وقال ﷺ: «المسلم أخو الْمُسْلِمِ؛ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ» (٢).

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فينبغي لك أيها العبد المتواضع أن تقبل الحق ممن تحب، وممن تبغض؛ فتقبله من عدوك؛ كما تقبله من وليك، وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حَقًّا له قِبَلَك؟

واعلم أن حقيقة التواضع:

أنه إذا جاءك بحقٍّ قبلته منه، وإن كان له عليك حقٌّ أديته إليه؛ فلا تمنعك عداوته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري، (٦/ ٩٧ـ الفتح)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم، ، (١٦/ ١٢١ ـ نووي)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال ـ ﷺ ـ:

«ثَلاَثٌ مُنَجِّيَاتٌ: خَشْيَةُ الله في السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، وَالْقَصْدُ في الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَالْعَدْلُ في الْغَضَبِ والرِّضَا»(١).

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فحاصلها أن من أساء إليك، ثم جاء معتذرًا من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته؛ حقًّا كانت أو باطلاً، وَتَكِلُ سريرته إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا رأيت خللاً في عذره لا توقفه عليه، ولا تحاجه، وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول: ولو قُضي شيء لكان، والمقدور لا مفر منه.

قال ﷺ: «**المؤمن غرٌّ كريم والفاجر خبٌّ لئيم**»(٢).

والغر هو الذي ينخدع لانقياده ولينه، وقلة فطنته للشر، وترك البحث عنه، ولا يكون ذلك منه جهلاً، ولكنه كرم، وحسن خلق.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، (١٨٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، (٤١٨)؛ وأبو داود، (٤٠٧)؛ والترمذي، (١٩٦٤) والحاكم، (١/ ٤٣)، وغيرهم. من طريق بشر ابن رافع، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعًا. قلت: هذا إسناد ضعيف؛ لأن بشر بن رافع ضعيف، ولكن تابعه الحجاج بن فرافصة.
أخرجه أبو داود، (٤٧٩٠)؛ وأحمد (٢/ ٣٩٤)، والطحاوي في «مشكل الآثار»، (٤/ ٢٠٢)؛ وأبو نعيم في «الحلية»، (٣/ ١١)؛ والخطيب البغدادي في «تاريخه»، (٩/ ٣٨)؛ والحاكم، (١/ ٤٣)؛ و«معرفة علوم الحديث»، (ص١١٧).
وأعله الحاكم في «معرفة علوم الحديث» بأن الحجاج لم يسم شيخه في رواية سفيان عنه؛ وهي رواية أحمد وأبي داود.
قلت: «وهذه علة غير قادحة؛ فقد سماه في رواية غيرهما».
والحجاج بن فرافصة صدوقٌ عابدٌ يَهِمُ، فإذا ضُمَّ إلى روايته رواية بشر ابن رافع ارتقى الحديث بمجموعها إلى درجة الحسن.

[٧] فَضَائِلُ التَّوَاضعِ

١ ـ ٧ ـ التَّوَاضُعُ يَرْفَعُ العَبْدَ ـ:

اعلم أيها العبد المتواضع:

أن الواجب على العاقل لزوم التواضع، ومجانبة الكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تجمله، إلا أن المرء كلما كثر تواضعه، ازداد بذلك رفعة، لكان الواجب عليه أن لا يتزيَّ بغيره.

قال ﷺ: «**مَا نَقُصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ**»(١).

ولذلك ترى منزلة العبد المتواضع عظيمة في قلوب الناس؛ لأن الله رفعه عند الناس، وجعل له لسان صدق فيهم.

وهذه عاجل بشرى المؤمن، لما سيحبوه الله به في الآخرة من نعمٍ لم تخطر على قلب بشر.

ولله درُّ القائل:

وَكَفَى بِمُلْتَمِسِ التَّوَاضُعِ رِفْعَةً ... وَكَفَى بِمُلْتَمِسِ الْعُلُوِّ سَفَالاً

٢ ـ ٧ ـ التَّوَاضُعُ يَرْفَعُ حَكَمَةَ الْعَبْدِ:

قال ﷺ: «**مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلاَّ في رَأْسِهِ حَكَمَةٌ**(٢) **بِيَدِ مَلِكٍ، فَإِذَا تَوَاضَعَ، قيلَ**

---

(١) أخرجه مسلم، (١٦/ ١٤١ ـ نووي)، والدارمي، (١/ ٣٩٦)، وأحمد، (٢/ ٣٨٦) وغيرهم. من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس، وحنكه تمنعه من مخالفة راكبه.

لِلْمَلِكِ ارْفَعْ حَكَمَتَهُ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قِيلَ لِلْمَلِكِ ضَعْ حَكَمَتَهُ»[١].

قد يكون المراد أن رفعها دليل الإعزاز؛ لأن صفة الذليل تنكيس رأسه، ولكني أرى في هذا الحديث معنى لطيفًا يدل على أن التواضع سب في انتفاع العبد بما جاء به رسول الله من العلم والهدى، بدلالة قوله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ؛ كَمَثَلِ الغَيْثِ أَصابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ فَأَنبتَتِ الْكَلأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنهَا ائِفةً أُخرَى؛ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ فَذَلِكَ مَثَلُ مَن فَقِهَ في دين الله وَنَفَعهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ، وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[٢].

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف جعل الرسول ﷺ المعرض عن الهدى والعلم هو من لم يرفع بذلك رأسًا، وهذه صفة المتكبر في الحديث الأول، فعلم أن الذي يحول بين المرء والانتفاع بالهدى والعلم هو الكبر الذي يحيك في الصدور ـ وسيأتي مزيد بيانٍ في «خطورة الكبر».

ولله در القائل:

وَالعِلْـمُ حَـربٌ للفتَـى الْمُتَعـالِـي ... كَـالسَّيـل حَـربٌ لِلمَكَـانِ العَـالِـي

وذلك أن الكبر منقصةٌ للعقل، ولقد أحسن من قال:

التِّيــهُ مَفْسَــدَةٌ للــدِّيــنِ مَنْقَصَــةٌ ... لِلعَقْـلِ مَهْتَكَــةٌ لِلعِـرْضِ فَــانْتَبِـهِ
لا تَشْـرَهَـنَّ فَـإِنَّ الـذُّلَّ فـي الشَّـرَهِ ... وَالعِزُّ فِي الْحِلْمِ لا في الْبَطْشِ وَالسَّفَهِ

٣ ـ ٧ ـ التواضع يكسب السلامة، ويُورثُ الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد.

---

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٥٣٨).

(٢) أخرجه البخاري، (١/ ١٧٥ ـ الفتح)؛ ومسلم؛ (١٥/ ٤٥ـ٤٦ـ نووي) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إليَّ أَن تَواضعُوا، حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»(١).

* * *

(١) اخرجه مسلم، (١٧/ ٢٠٠ـ نووي)، وغيره من حديث عياض بن حماد رضي الله عنه.

[٨] أُمورٌ تَدُلُّ عَلَى التَّوَاضُعِ

١ ـ ٨ ـ الْخُضَوعُ لِلْحَقِّ :

اعلم أيها العبد المتواضع :

أن لصاحب الحق مقالاً وصولة، لا تقر لها النفوس المبطلة على تلك الصولة التي في حناياها؛ فتراها تصول على الحق بتكبرها، وباطلها، لعلها تزهقه.

ولذلك؛ فإن أمارة التواضع، ولبابه خضوع العبد لصولة الحق، والانقياد لها؛ فلا يقابلها بصولة عليها، بل يتلقى سلطان الحق، وبرهانه بالخضوع له، والذل والانقياد، والدخول تحت طاعته؛ بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف السيد في مملوكه، فبهذا يرث العبد خلق التواضع.

قال ﷺ «الْكِبرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»(١).

فإذا كان الكبر دفع الحق إنكارًا، وترفعًا، وتجبرًا؛ فإن التواضع الخضوع له، والانقياد لصولته.

٢ ـ ٨ ـ احْتِرَامُ النَّاسِ :

اعلم أيها الأخ المتواضع :

أن العاقل إذا رأى من هو أكبر منه، تَوَاضَعَ له، وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأى من هو أصغر سنًّا منه تواضع له، وقال: سبقته إلى الذنوب، وإذا رأى من هو مثله اتخذه أخًا، فكيف يحسن أن يتكبر المرء على أخيه؟

---

(١) أخرجه مسلم، (٢/ ٨٩ـ نووي)، وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولا يجب استحقارُ أحدٍ؛ لأن العبد المتواضع لا يرى لنفسه قيمة فوق الناس، ولا يرى لأحدٍ إليه حاجة لا في الدين، ولا في الدنيا.

ولا يترك العبد التواضع إلا عند استحكام الكبر في نفسه؛ فلا يتكبر على الناس أحد إلا بإعجابه بنفسه.

ولذلك بَيَّن الرسول ﷺ أن الكبر غمط الناس في الحديث الآنف؛ أي احتقارهم واستصغارهم، فعلم أن التواضع احترام الناس، وإنزالهم منازلهم.

٣ ـ ٨ ـ الْقَصْدُ في المَشي:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي سكينة ووقارًا متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين.

إنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، لا تكلُّف فيها، ولا تصنُّع، وليس فيها خيلاء، ولا تصعير خد، ولا تخلع، أو ترهل، فالمشية ككلٍّ حركة تعبر عن الشخصية، وما يخالجها، ويعتلج في حناياها من المشاعر، والنفس السوية المطمئنة تخلع صفاتها على مشية صاحبها؛ فيمشي مشية سوية، مطمئنة جادة، قاصدة، ملؤها الوقار، والسكينة، والجد والقوة.

وليس معنى القصد في المشي أنهم يمشون متماوتين منكسي الرءوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفعل بعض الناس ممن يريد إظهار التقوى والورع، والصلاح.

وهذا رسول الله ﷺ لم يفعل شيئًا من ذلك، وهو أتقى الناس، وأعلمهم بالله.

قال ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (١/ ١٦٧ ـ ١٦٨)، يصف مِشْيَةَ رسول الله ﷺ:

«كان إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا، وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها».

قال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ؛ كأن الشمس

تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ؛ كأنما الأرض تطوى له، وإنّا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤًا؛ كأنما ينحط من صبب.

وقال مرة: إذا مشى تقلَّع.

قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم، والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات، وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج، والمهانة، والتماوت؛ فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة؛ كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة على خفة عقل صاحبها ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حالة مشيه يمينًا وشمالاً، وإما أن يمشي هونًا؛ وهي مشية عباد الرحمن؛ كما وصفهم بها في كتابه، فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر، ولا تماوت.

وهي مشية رسول الله ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه، ورسول الله ﷺ غير مكترث، وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية تماوت، ولا بمهانة بل مشية أعدل المشيات»، ا.هـ.

٤ ـ ٨ ـ خَفْضَ الجَنَاحِ وَلِينُ الْجَانِبِ:

قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، [المائدة: ٥٤].

قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

[٩] أمورٌ تعِينُ عَلى التَّواضُع

١ ـ ٩ ـ التَّفَكُّرُ في أَصْلِ الإنسَانِ :

إذا عرف الإنسان نفسه، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه نظرة في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت مرج البول، ثم علقة، ثم من مضغة؛ فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني شيئًا؛ فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله:

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾[عبس: ١٨-١٩].

ثم امتن عليه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾[عبس: ٢٠].

وبقوله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الدهر: ٢].

لقد أحياه الله بعد موت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا؛ فأشبعه وأرواه، وكساه، وهداه، وقواه.

فمن هذا بدايته، فأي وجه لتكبره وفخره وخيلائه؟!.

قال ابن حبان في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء»، (ص: ٦١): «وكيف لا يتواضع من خلق من نطفة مَذِرَةٍ، وآخره يعود إلى جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل العذرة».

٢ ـ ٩ ـ مَعْرِفَةُ الإنْسَانِ قَدْرَهُ:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال العلامة محمد أمين الشنقيطي في «أضواء البيان»، (٣/ ٥٩٢):

«أي أنت أيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين أنت عاجز عن التأثير فيهما؛ فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها، فاعرف قدرك، ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحًا» ا. هـ.

ولقد أجاد من قال:

وَلاَ تَمشِ فَوقَ الأَرضِ إلاَّ تَواضُعًا ... فَكَم تَحتَهَا قَومٌ هُمْ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنتَ في عِزٍّ وَخيرٍ وَمَنْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِن قَومٍ هُمْ مِنْكَ أَمْنَعُ

* * *

[١٠] تَواضُعُ رسُولِ الله ﷺ

أعلم أيها العبد المتواضع :

أن آداب الظواهر عنوان البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر الأفئدة هي مقايس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها.

ومن خشع قلبه خشعت جوارحه، ومن امتلأ صدره بالأنوار الإلهية، فاضت على مظاهره جمال الآداب النبوية.

ولذلك من أراد أن يُطَهِر قلبه من مادة الكبر، ويستعمل خلق التواضع، فلينظر بعين الأسوة الحسنة إلى سيرة رسول الله ﷺ فقد كمَّل الله تعالى خُلُقه، وأثنى عليه، فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، [القلم: ٤].

فسبحان من أعطى، ثم أثنى!!

وهذه جملة من محاسن تواضعه ﷺ: عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»(١).

عن أنس رضي الله عنه: كانت الأمة من إماء أهل المدينة؛ لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، (٦/ ٤٧٨).

(٢) أخرجه البخاري، (١٠/ ٨٩ـ الفتح)؛ معلقًا ومسلم، (١٥/ ٨٢ـ٨٣ـ نووي).

وعنه أيضًا:

«ولقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعير، ومشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سَنِخَةٍ[١]، ولقد سمعته يقول:

«مَا أَصْبَحَ لآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلاَّ صَاعٌ وَلاَ أَمْسَى، وَإِنَّهُمْ لَتِسْعَةُ أَبْيَاتٍ»[٢].

عن الأسود، قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟

قالت: «كان يكون في مهنة أهله ـ تعنى خدمة أهله ـ؛ فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة»[٣].

* * *

(١) إهالة سنخة: الشحم المذاب، متغير الرائحة والطعم. اللسان (س. ن. خ).

(٢) البخاري، (٥/ ١٤٠ ـ الفتح).

(٣) البخاري، (٢/ ١٦٢ ـ الفتح).

[١١] مَاهُوَ الكِبْرُ؟

هو رؤية النفس على الحق والخلق؛ فالمتكبر يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال.

فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام حَقَّر من دونه وازدراه، فهو ينظر للحق بأنه هضمٌ لمنزلته، تصغير لشأنه، وينظر إلى الخلق؛ كأنهم الدواب استجهالاً، واستحقارًا.

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر، فقال: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[1].

وبهذا ينفصل الكبر عن العُجْبِ؛ فإن العُجْب لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجبًا بنفسه، ولا يتصور أن يكون متكبرًا، إلا أن يكون معه غيره، وهو يرى نفسه فوقه.

* * *

(١) تقدم تخريجه.

[١٢] أَسْبَابُ الْكِبْرِ

١ ـ ١٢ ـ العُجْبُ:

اعلم أيها العبد المتواضع ـ زادك الله رفعة ـ:

أن الإنسان لا يتكبر على أحد حتى بنفسه، ويرى لها على غيرها الفضل؛ فمن العجب يتولد الكبر.

والعجب مهلكة؛ لقوله ﷺ:

«ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مَطَاعٌ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ»[(١)].

وقال ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ في بُرْدَيْنِ وَقَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ خَسَفَ الله بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ[(٢)] فِيهَا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ»[(٣)].

٢ ـ ١٢ ـ ازدِرَاءُ الْخَلْقِ:

اعلم أيها العبد:

أن من لم يستحقر الناس، لم يتكبر عليهم، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانًا.

وقد مضى تفصيل ذلك في «أمور تدل على التواضع».

٣ ـ ١٢ ـ حُبُّ الرِّفعَةِ والعُلُوِّ:

---

(١) جزء من حديث مضى.
(٢) يغوص في الأرض باضطراب.
(٣) أخرجه البخاري، (١٠/ ٢٢٢ـ الفتح)؛ مسلم، (٢٠٨٨).

اعلم أيها العبد المخبت لله :

أن النفس تحب الرِّفعة والعُلُو على أبناء جنسها ، ومن هنا ينشأ الكبر .

قال أبو العتاهية :

أَأُخَيَّ مِنْ عِشْقِ الرِّئَاسَةِ خِفْتَ أَنْ ... يَطْغَى وَيُحْدِثُ بِدْعَةً وَضَلاَلاَ

وقال ابن عبد البر :

حُبُّ الرِّئَاسَةِ دَاءٌ يَحْلِقُ الدِّينَا ... وَيَجعَلُ الحُبَّ حَرْبًا للمُحبِّينَا
يَفْرِي الحَلاَقِمَ وَالأَرْحَامَ يَقْطَعُهَا ... فَلاَ مُرُوءَةَ يُبْقِيهَا وَلاَ دِينَا
مَنْ سَادَ بِالجَهْلِ أَو قَبْلَ الرُّسُوخِ ... فَلاَ تَرَاهُ إِلاَّ عَدُوًّا للمُحقِّقِينَا
يَبْغِي وَيَحْسِدُ قَومًا وَهْوَ دُونهُمُ ... ضَاهَى بِذَلَك أَعْدَاءَ النَّبِيِّنَا

ولذلك من تدبر القرآن، وجد أن المستكبرين من كل قومٍ هم الملأ الذين بيدهم أزِمّة الأمور .

قال تعالى عن ثمود قوم صالح عليه السلام :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٥-٧٧] .

وأخبر عن قوم شعيب :

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

والآيات في الباب كثيرة .

ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله، وقربه، وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله، وسخطه،

وانحطاط العبد، وشغوله، وبعده عن الله، وطرده عنه، فهذا هو العلو الذي يذم؛ وهو العتو، والتكبر في الأرض بغير الحق.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وأما العلو، والحرص عليه، فهو محمودٌ؛ قال الله تعالى:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ففي درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس، وطلب العلو في منازلها، والحرص على ذلك بالسعي في أسبابه، وأن لا يقنع الإنسان بالدون مع قدرته على العلو.

٤ ـ ١٢ ـ اتِّبَاعُ الْهَوَى.

اعلم أيها العبد:

أن الكبر ينبع من اتباع الهوى؛ لأن الهوى داعٍ إلى العلو في الأرض، والشرف فيها.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

[١٣] خُطُورَةُ الكِبرِ

اعلم أيها العبد الذي أُثلج صدره ببرد التواضع، أن آفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العلماء، والعباد، والزهاد.

وكيف لا تعظم آفة وهو:

١ ـ ١٣ ـ أَوَّلُ مَا عُصِيَ به اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

لقد كان الكبر أول ذنب عَصَى الله به إبليسُ اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه؛ حيث حمله على الاحتجاج بالأقدار والإصرار.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

٢ ـ ١٣ ـ الْكِبرُ قَرِينُ الشِّرْكِ وَسَبَبُهُ:

ولذلك قرن الله سبحانه في كتابه المجيد بين الكفر، والكبر؛ فقال عز ثناؤه: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣ـ٧٤].

وقال تبارك وتعالى:
﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٩].

لأن من تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه على يد صغيرٍ، أو من يبغضه، ويعاديه ـ؛ فإنما تكبره على الله فإن الله هو الحق، وكلامه الحق، ودينه الحق، والحق صفته، ومنه وله؛ فإذا رده العبد، وتكبر عن قبوله؛ فإنما رد على الله، وتكبر عليه، ومن تكبر على الله أذله الله، ووضعه، وصغَّره، وحقَّره.

٣ ـ ١٣ ـ النَّارُ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ:

ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين؛ كما في سورة غافر، آية ٧٦، سورة الزمر، آية ٧٢.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

والمتكبرون هم سكان جهنم، وأهلها؛ لقوله ﷺ:

«إِنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ الْمغْلُوبُونَ»(١).

وهم يذوقون فيها ألوانًا من العذاب، ويغشاهم الذل من كل مكان، ويسقون من عصارة أهل النار.

قال ﷺ: **«يُحْشَرَ الْمُتَكَبِّرون يَومَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجَالِ؛ يَغشَاهُمُ الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، يُسَاقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسَمَّى بُولِسُ؛ تَعلُوهُمْ نَارُ الأنْيَارِ، يُسْقَونَ مِن عُصَارَةِ أَهلِ النَّار طِينَةُ الخبَالِ»**(٢).

٤ ـ ١٣ ـ الْكِبرُ حِجَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ.

---

(١) أخرجه أحمد، (٢/ ١١٤)؛ والحاكم (٢/ ٤٩٩)، من طريق عبد الله: أنا موسى بن علي ابن رباح: سمعت أبي يحدث، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فذكره، والسياق لأحمد.
قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي».
قلت: وهو كما قالا: وله شواهد عن سراقة بن مالك، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم.
الجعظري: الفظ الغليظ.
الجواظ: الجموع المنوع.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، (٥٥٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، وأحمد، (٢/ ١٧٩)؛ ونعيم بن حماد في زوائد الزهد»، (١٥١).
وحسنه الترمذي، وهو كما قال.

ولذلك طرد الله سبحانه إبليس من الجنة، فقال:

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ ﴾[الأعراف: ١٣].

وإنما صار الكبر حجابًا دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحبه لنفسه من الخير؛ فلا يستطيع التواضع، ولا يترك الحسد، والحقد والغضب، ولا يكظم غيظًا، ولا يقبل نصحًا، ولا يسلم من الازدراء بالناس، واغتيابهم، فما من خلق ذميمٍ إلا وهو مضطر إليه.

٥ ـ ١٣ ـ لا يحِبُّ الله المتكبِّرينَ.

ومن كانت هذه صفاته؛ فإنه يستحق اللعن من الله، والبعد من رحاب رحمته، ويغضب الله عليه، ولا يحبه.

قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٢ـ٢٣].

٦ ـ ١٣ ـ الكِبرُ سببٌ في خَاتِمَةِ السُّوءِ.

ولذلك أخبر الله أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم؛ فهم لا يؤمنون، فقال جل جلاله:

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [غافر: ٣٥].

١٣ ـ ٧ ـ الكبْرُ سَبَبٌ في الإعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ الله ـ:

وذلك أن المتكبر لا يبصر آيات الله المعبرة الناطقة بالأدلة القاطعة؛ لأن الكبر غشاوةٌ على عينيه، فلا يبصر إلا نفسه، ولا يشعر إلا بذاته.

قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٨ ـ ١٣ ـ الكِبْرُ أعظَمُ الذَّنوبِ:

ومن كانت هذه خطورته؛ فلا جرم أنه أعظم الذنوب.

قال ﷺ:

«لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ، لَخِفْتُ عَلَيكُم مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ العُجْبُ العُجْبُ»[1].

* * *

(١) حسنٌ لغيره؛ كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» لشيخنا، (٦٥٨)، فلينظر.

[١٤] أَبْوَابُ الكِبرِ

١ ـ ١٤ ـ التَّكبرُ على الحقِّ:

اعلم أخا الإيمان أن من شر أبواب الكبر ما يمنع من الاستفادة من العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن نفسه لا تطاوعه على الانقياد للحق، فتصرفه عن الانتفاع به؛ كما أخبر الله تعالى عن قوم فرعون، فقال: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

وقال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥ـ٤٨].

والآيات في هذا الباب كثيرة، وهذا تكبر على الله وعلى رسله.

٢ ـ ١٤ ـ التَّكَبرُ عَلَى العِبَادِ:

وهذا بابٌ يَرَى فيه المتكبر نفسه فوق الخلق؛ فيستعظمها، ويحتقرهم، وهو يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى؛ كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر الله في السجود.

قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٣ـ٧٦].

٣ ـ ١٤ ـ الكِبْرُ باللِّبَاسِ:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خَيْلاَءَ، لَم يَنظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،

فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن أحد شِقَّي إزاري يسترخي إلاَّ أن أتعاهد ذلك منه؟

فقال ﷺ:

«لَسْتَ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خَيْلاَءَ»(١).

فَعُلِمَ من هذا أن إطالة الثوب دون الكعبين هو الخيلاء، وهو يستحق العقوبة في الدنيا قبل الآخرة.

قال ﷺ: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الخَيلاءِ خُسِفَ بِهِ؛ فَهُوَ يَتَجَلجَلُ في الأرَضِ إلى يَومِ القِيَامَةِ»**(٢).

٤ ـ ١٤ ـ التَّكبُّرُ بالأفعَالِ:

واعلم أن المتكبر يتعالى بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه؛ فترى العالم يُصَعِّر خده للناس؛ كأنه مُعرِضٌ عنهم، والعابد يعبس ووجهه كأنه مستقذرٌ لهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

وهذان قد جهلا ما أدَّب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

٥ ـ ١٤ ـ التَّكبر بالكَلامِ.

وقد يظهر المتكبر الكبر بلسانه، كالدعاوى، والتفاخر، وتزكية النفس، والتفيهق في الكلام؛ ليظهر بلاغته، وفصاحته.

قال ﷺ: **«إنَّ الله عزَّ وَجلَّ يَبغضُ البَليغَ مَن الرِّجَالِ الَّذي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ**

---

(١) البخاري، (١٧/ ١٩ـ الفتح)، وغيره من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما.
(٢) مضى تخريجه.

تَخَلُّلَ البقْرَةِ بِلِسَانِهَا»(١).

٦ ـ ١٤ ـ التَّكَبُّرُ بِالمَشي:

ويظهر المتكبر الكبر في مشيته؛ حيث يختال في مشيته، ويتبختر في خطاه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال ﷺ:

«مَا مِن رَجُلٍ يَتَعَاظَمُ في نَفسِهِ وَيَختَالُ في مشيَتِهِ إلاَّ لَقيَ الله تعالى وَهُوَ عَلَيهِ غَضبَانُ»(٢).

٧ ـ ١٤ ـ التَّكَبُرُ بِالأَتبَاعِ:

واعلم أن التكبر بالأتباع، وكثرة الأنصار أكثر ما يجري بين الملوك بالمكاثرة بالجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

٨ ـ ١٤ ـ التَّكَبُّرُ بالجَمَالِ:

وهذا الباب أكثر من يَلجه النساء؛ فيَدعُوهُنَّ إلى التنقص، والغيبة، وذكر العيوب.

---

(١) أخرجه أبو داود، (٥٠٠٥)؛ والترمذي، (٢٨٥٣)؛ وأحمد، (٢/ ١٦٥، ١٨٧)، من طريق نافع بن عمر، عن بشر بن عاصم بن سفيان، عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا به.
قلت: (وهذا إسنادٌ حسنٌ؛ رجال كلهم ثقات غير عاصم بن سفيان، وهو صدوق؛ كما في «التقريب»).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، (٥٤٩) والحاكم، (١/ ٦٠)، وغيرهما.
قلت: وهو صحيح.

٩ ـ ١٤ ـ التَّكَبُّرُ بِالْمَالِ:

وهذا الباب يجري بين الملوك، والتجار، ونحوهم من أهل الدنيا الجَمَّاعين المَنَّاعين؛ فيدعوهم إلى الشُّحِّ، والبخل والحسد.

١٠ ـ ١٤ ـ التَّكَبُّرُ بالنَّسَب:

كالذي له نسبٌ شريفٌ يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أفضل منه عملاً، ويتخيل أنه ينجو بشرف آبائه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

فليس أحد أكرم من أحدٍ إلا بالتقوى؛ لأن أصل البشر واحد إليه ينتسبون، ومن فضَّل أصلَه على أصل غيره فقد قلَّد إبليس، فبئست القدوة التي تسوق إلى سواء الجحيم!!

وبالجملة؛ فإن كل من اعتقد في نفسه كمالاً أمكن أن يَتَكبَّر به، حتى أهل الفسق والفجور قد يفتخرون بذلك؛ لظنهم أنه كَمَالاً، والعياذ بالله.

* * *

[١٥] أمورٌ تدلُّ علَى الكِبْرِ

اعلم أيها المسلم أن التَّكبُّرَ يظهر في شمائل الإنسان، وحركاته، وسكناته وسائر تقلباته، ومن ذلك:

١ ـ ١٥ ـ أن المتكبرَ يُحِبُ قيام الناس له:

قال ﷺ: «مَن أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

وإذا كان هذا التحذير في شأن الذي يُقام له؛ فلا يجوز للقائم أن يبتدئ ذلك، فإن الصحابة لم يفعلوا ذلك حتى مع أحب الناس إليهم؛ وهو رسول الله ﷺ:

قال أنس: لم يكن شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول الله ﷺ؛ كانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لِما يعلمون من كراهته لذلك(٢).

٢ ـ ١٥ ـ أن المتكبر لا يتعاطى بيده شُغلاً في بيته:

٣ ـ ١٥ ـ أن المُتَكَبِّر يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه، أو مشيه معه:

هذه الأمور بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ؛ كما بيناه في «تواضعه ﷺ».

٤ ـ ١٥ ـ إن المتكبر يَلْوي رأسه، ويُصَعِّر خَدَّه:

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٧)؛ وأبو داود، (٥٢٢٩)، وغيرهما من حديث معاوية بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، (٩٤٦)، وغيره، وهو صحيح.

[١٦] أمورٌ تُعِيْن عَلَى التَّخَلُّص مِنَ الكِبْرِ

اعلم أخا الإيمان أن الكبر من المهلكات؛ ولذلك ينبغي للعبد أن يَقر منه متلجأً إلى رُكْنِ التواضع الوثيق؛ مستعينًا بالله، ومستعيذًا به من شر الكِبر والعُجْب، ودونك بعض الأمور التي تعينك على تجنب الكبر:

١ ـ ١٦ ـ مَعْرِفَةُ الله حَقَّ الْمَعْرِفَةِ:

ويكفي للمرء أن ينظر في آثار قدرة الله، وعجائب صُنعه؛ فتلوح له عظمة الله جل جلاله، فتظهر له المعرفة، وهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر؛ لأن الإنسان إذا تراءت له قدرة الخالق، وعظمة الباري، علم أن الكبرياء رداء الرحمن، والعز إزاره؛ فكيف يجرؤ على منازعة الله في صفةٍ من صفاته؟!

قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧].

فالله عز شأنه هو الجبار المتكبر.

﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

ولذلك فمن تكبَّر على المُتكِّبر جل جلاله كان حقًّا على الله أن يُعَذِّبَهُ.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائي وَالعِزُّ إِزَارِي؛ فَمَن نَازَعنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ في النار**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد، (٢/٢٤٨): ثنا سفيان عن عطاء بن السائب، عن الأغر، عن أبي هريرة، ـ قال سفيان أول مرة ـ أن رسول الله ﷺ ثم أعاده، فقال: الأغر عن أبي هريرة، قال: فذكره.

=

٢ ـ ١٦ ـ الاستعاذة بالله من الكِبْر والمُتكَبِرين :

من استعاذ بالله فقد لجأ إلى حماه الوثيق، وركنه الركين، وكان حقًا على الله أن يعصمه من شر الكبر والمتكبرين.

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

ولذلك ترى النبيين يستعيذون بالله من المتكبرين؛ كما أخبر الله، فقال عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

٣ ـ ١٦ ـ التَّأَسِّي بالمُتَوَاضِعِين :

وهذا الأمر هو العلاج العملي حيث يتواضع العبد لربه، ولإخوانه المسلمين؛ فيواظب على خُلُق المتواضعين، وخير من يتأسى العبد به رسول الله ﷺ وقد تَقَدَّمَت الإشارة إلى طريقته ﷺ، وما كان عليه من التواضع، والأخلاق الحميدة.

٤ ـ ١٦ ـ مَن اعْتَرَاهُ الكِبرُ مِن جِهَةِ النَّسَبِ :

فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده؛ فإن أباه القريب نطفة مذرة، وأباه البعيد تراب.

٥ ـ ١٦ ـ وَمَنْ أَدْهَشَهُ جَمَالُ ظَاهِرِه :

فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم.

= قلت: وإسناده صحيح؛ رجاله ثقات، وسفيان هو ابن عيينة؛ سمع من عطاء بعد الاختلاط، ولكن تابعه الثوري عند أحمد، (٢/ ٣٧٦)؛ حيث سمع من عطاء قبل اختلاطه فصح الحديث.

٦ ـ ١٦ ـ **وَمَن تَجَبَّرَ مِن جَهَةِ قُوَّته :**

فليعلم أنه لو آلمه عرقٌ، عاد عاجزًا كل العجز وأعجز من كل عاجز، وأن حُمَّى يوم تهد من قوته ما لا يعود في مدة، وأن شوكة لو وخزته في رجله لأعجزته، وبعوضة لو دخلت في أذنه لأقلقته.

٧ ـ ١٦ ـ **وَمَنْ تَكَبَّرَ بِسَبَب الْغِنَى :**

فليعلم أن اليهود أغنى منه، فأُفٍّ لِشَرَف يَسْبِقُ إليهِ المغضوب عليهم، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً حقيرًا.

٨ ـ ١٦ ـ **وَمَنْ رَأَى نَفْسَهُ بِسَبَبِ الْعِلْمِ :**

فليعلم أن حجة الله على العالم أكبر من الجاهل، وليتأمل الخَطَر العظيم الذي هو بصدده عندما يُعْرَض على الله، فيكلمه كفاحًا ليس بينهما ترجمان؛ فيسأله عن علمه ماذا فعل به، ولِمَ تعلَّمه؟!

ولذلك فلا معنى لعجب العامل بعمله، ولا العالم بعلمه، ولا الجميل بجماله، ولا الغني بغناه؛ إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الإنسان محل لفيض النعم الإلهية، وكونه محلاً له نعمة أخرى.

ولذلك فَلْتَعْلَم أن عملك لا يؤهلك لدخول الجنة؛ وإنما برحمة الله التي يفرغها على عباده المتواضعين المُخْبِتين، ويحجبها عن المتكبرين المتجبرين.

قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

---

(١) رواه البخاري، (١٠/١٠٩)؛ ومسلم، (٦/٢٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[١٧] آثَارُ الْكِبْرِ السَّيِّئَةُ

١ ـ ١٧ ـ الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ :

اعلم أن البغضاء والحسد ما استُجلب بمثل التكبر؛ لأن من استطال على الإخوان، فلا يَثقن منهم بالصفاء، ولا يجب لصاحب الكبر أن يطمع في الثناء، لذلك لا ترى تائهًا إلا وضيعًا.

ولله در القائل:

وَدَعِ التيه وَالعُبُوسَ عَلَى النَّاسِ ... فَإِنَّ العُبُوسَ رَأسَ الْحَمَاقَهْ
كُلَّمَا شِئْتَ أَن تُعَادِيَ عَادَيْتَ ... صَدِيقًا وَقَدْ تَعُزُّ الصَّدَاقَهْ

فإذا رأى المتكبر ما لا يرضيه بانصراف الناس عنه؛ حيث ظن أن البشر عبيد له، انبعثت نار الحسد من قلبه إلى وجهه، وتوجهت سهام الحسد من قلبه؛ فترى وجهه عبوسًا قمطريرًا، ونظره شزرًا.

ولذلك أمر الله بالاستعاذة من الحسد والحاسدين؛ كما أمر بالاستعاذة من الكبر والمتكبرين.
قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

٢ ـ ١٧ ـ البَغْيُ :

قال ﷺ: «**إِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحدٌ عَلَى أَحَدٍ**»(١). فعلم أن الكبر ينتج التفاخر الذي يولد البغي.

٣ ـ ١٧ ـ الْمَكْرُ السَّيِّئُ :

---

(١) مضى تخريجه.

والمتكبر حتى يَستَذِلَّ العبيد؛ ينسج الأحابيل بالليل والنهار؛ ليوقعهم فيها، فلا يستطيعون نهوضًا؛ لذلك لا ترى إلا خادعًا ماكرًا يَرُوغ كما يروغ الثعلب.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣].

وقال جل جلاله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

لذلك فالكبر سلسلة هدم تفضي حلقاتها إلى بعضها بعضًا؛ ولذلك قيل: العجب يهدم المحاسن.

[١٨] أُمُورٌ لاَ تُعَدُّ مَنَ الْكِبْرِ

١ ـ ١٨ ـ الثِّيَابُ الْجَمِيلةُ الْحَسنَةُ :

قال ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ».

قال رجلٌ: إن الرجل يُحِبُ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا.

قال: «إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الْجَمَالَ؛ الْكِبرُ بطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[١].

٢ ـ ١٨ ـ الاخْتيَالُ بيَنَ الصَّفَّين:

اعلم يا أخا الإسلام أنه إذا التقى جيش الإيمان وجيش الكفر، فإنه يجوز للمسلم أن يختال على أعداء الله متحديًا مظهرًا قوة الإسلام والمسلمين، ليُتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا.

ولذلك فإن الله يبغض الاختيال في المشية إلا في هذا الموطن الذي ترفع فيه كلمة الحق بإذن الله.

قال ﷺ: «كُلُّ شَيءٍ لَيْسَ مِن ذِكرِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ لَغوٌ أَو سَهوٌ إلاَّ أَرْبَعُ خِصَالٍ؛ مَشيُ الرَّجُل بيَنَ الْغَرَضَينِ، وَتَأْدِيبُه فَرَسِهِ وَمُلاَعَبَتُهُ أَهلِهِ وَتَعَلَّمُ السِّبَاحَةِ»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح، انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، (٣١٥).

الْخَاتِمَةُ

«رَزَقَنَا اللهُ الْحُسْنَى وَزِيَادَةً»

اعلم يا مسلم، يا عبد الله- علمنا الله وإياك - أن هذه جملة خيرات التواضع، فكن بَحاثًا عنها والتزمها، واحذر الكبر وويلاته، وروض نفسك على التواضع؛ فإنه العلاج القالع لبذرة الكبر التي إذا نبتت في قلب أفسدته، وجعلته كالبيت الخرب تأوي إليه الشرور من كل حَدَب وصوب.

اللهم، لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وثبتنا على دينك.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك.

* * *

نحو أخلاق السلف (٥)

مبطلات الأعمال

فـي ضَـوءِ القُـرآنِ الكَـريـمِ والسُّنَّـةِ الصَّحيحة المطهرة

قبس من التنزيل

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد : ٣٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله؛ نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له.

وأشهد ان محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ سعادة الأبد في جنَّة عرضها السّموات والأرض لن ينالها العبد إلا بالعبادة على بصيرة.

ولمَّا كانت العبادة دون نيَّة عناء، والنَّية دون إخلاص رياء، والإخلاص دون اتباع هباء، فعلى العبد الذي يريد الله والدَّار الآخرة أن يصحِّح النّية بعد فهم حقيقة الإخلاص، ويصحِّح العمل بفهم حقيقة الاتباع.

ومن ثم فليرابط على حصون نفسه بالمشارطة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاقبة، والمجاهدة، والمعاتبة.

والمسلم في تجارة ربحها الفردوس الأعلى، وتدقيق الحساب في هذا مع النَّفس أولى من تدقيقه في أرباح الدُّنيا، فحتم على كلِّ ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتَّضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها؛ فإنَّ كل لحظة من لحظات العمر جوهرة ثمينة.

وذلك لأنَّ النَّفس ميّالةٌ إلى ما يظهر أنَّه مصلحةٌ لها في المآل أو الحال، وقد تستكثر؛ فتحَبطُ أعمالها؛ لأنَّ مما ينبت الرَّبيع ما يقتل حبطًا أو يُلِمُّ إلا آكلة الخضر.

ولذلك لا بدَّ من الوقوف على الخصال التي قد تستحسنها النَّفس فتحبط أعمالها، ويبطُل ثوابها وهي لا تشعر، وها هي مجموعةٌ بين يديك في هذه الرسالة، وقد سميتها: «مبطلاتُ الأعمال في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة الصَّحيحة المطهرة».

أسأل الله أن يتقبلها بقبول حسنٍ، وأن يدَّخر لنا ثوابها إلى يوم لقائه، وعلى الله قصد السَّبيل.

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ليلة الخميس في منتصف ربيع الأول سنة أربعمائة وثمان بعد الألف
من هجرة الرسول ﷺ في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن من بلاد الشام المحروسة

١ ـ خوف السلف رحمهم الله من أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون

اعلم أخا الإيمان ـ نوَّر الله قلبك بالهدى ـ أن الأجر الجزيل والخير العميم الذي وعد الله به عباده إنما يحصل لمن صنع ذلك إيمانًا واحتسابًا.

قال ابن قيِّم الجوزية رحمه الله: «فإن كل عمل لا بدَّ له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لا بدَّ أن يكون مبدؤه الإيمان، وغايته ثواب الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

ولهذا كثيرًا ما يُقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النَّبيِّ: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا»**[1] و **«من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا»**[2]، **ونظائره»**[3].

وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرَّحمن يقلِّبها كيف شاء ـ اللهم ثبت قلوبنا على دينك ـ فقد يعرض للمرء ما يعكر على قصده الخالص؛ فيحرم به الثواب الموعود وهو لا يشعر؛ لأنه لا يثاب إلا على ما أخلص فيه.

ولذلك يرى المتتبع لسيرة السَّلف الصَّالح من خلال أقوالهم وأفعالهم أنهم كانوا بين الخوف الرَّجاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) المصدر السابق.
(٣) «الرسالة التبوكية» (ص٤٥، ٤٦ ـ بتحقيقي).

قال ربُّ البريَّة سبحانه وتعالى يصف خير البَريَّة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ـ٦٠].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله عن هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قالت عائشة: هم الذّين يشربون الخمر ويسرفون؟.

قال ﷺ: **«لا يا بنت الصِّدِّيق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»**(١).

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين المسارعين في الخيرات بأبلغ صفاتهم، فهم مع قيامهم بالعبادة خير قيام يخافون أن لا يتقبل منهم.

والسِّرُّ في ذلك ليس خشيتهم ألاَّ يوفيهم ربُّهم أجرهم، كلاَّ؛ فإن الله لا يخلف الميعاد: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

---

(١) حسن لشواهده أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وأحمد (٦/ ١٥٩و٢٠٥)، والحاكم (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤) من طريق مالك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عنها به.
قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
قلت: فيه انقطاع بين عبد الرحمن بن سعيد وعائشة فإنه لم يدركها.
لكن له شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٨/ ٢٦).
قلت: وفيه ضعف من قبل شيخ ابن جرير، وهو محمد بن حميد بن حيان الرازي؛ فإنه متهم؛ فمثله لا يصلح للاعتبار به، ولا يفرح بمثله.
لكن الحديث يشهد له ما سبق من قوله تعالى.
فالقلب يميل إلى تحسينه، والله أعلم.

بل إنه ليزيدهم عليها تفضُّلاً وإحسانًا ومنَّة ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [فاطر: ٣٠].

وإنما لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الإعطاء والعبادة كما أمر الله؛ فهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله بل يظنون أنهم قصَّروا في ذلك، ولذلك فهم يخافون أن لا يتقبل منهم؛ فتسابقوا في الخيرات، وتنافسوا في فعل الصَّالحات، فليتأمل العبد هذا لعلَّه يزداد حرصًا على إحسان العبادة، وإتقان العمل، بالإخلاص لله، واتباع رسول الله ﷺ.

ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ يخشون أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، وذلك من تمام إيمانهم وكمالهم، قال تعالى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة الثقة الفقيه: «أدركت ثلاثين من أصحاب النَّبيِّ ﷺ كلُّهم يخاف النِّفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل»[(١)].

قال الحافظ في فتح الباري (١/ ١١٠-١١١): «والصَّحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلِّهم عائشة، وأختها أسماء وأم سلمة، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة، وعقبة بن الحارث، والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسِّنِّ جماعة أجلَّ من هؤلاء؛ كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النِّفاق في الأعمال، ولم يُنقل عن غيرهم خلاف ذلك؛ فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم بل ذلك على

---

(١) علقه البخاري في «صحيحه» (١/ ١٠٩ - الفتح)، ووصله أبو زرعة الرازي في «تاريخ دمشق» (١٣٦٧) مختصرًا.

سبيل المبالغة منهم في الورع والتَّقوى رضي الله عنهم» .

لقد صدق الحافظ رحمه الله؛ فإن ذاك الجيل الربَّاني مقت نفسه في ذات الله، فَدنا من الله سبحانه وتعالى أضعاف أضعاف ما يبذله غيره من العمل .

لقد نظر هؤلاء الصِّدِّيقون في حق الله عليهم، فأورثهم الله جلَّ جلاله مقت أنفسهم؛ فعلموا أنَّ النَّجاة لا تحصل إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإنّ حقَّه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر .

فمن نظر في هذا الحقِّ الذي لخالقه عليه عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدٍّ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إذا أحيل إلى عمله ونفسه هلك .

فهذا محلُّ نظر المخلصين لله، وهذا الذي أورثهم اليأس من أنفسهم، وتعليق رجائهم كلِّه بعفو الله ورحمته .

ولكن ـ واأسفاه ـ إذا تأمّل المنصف حال النَّاس في يومنا هذا وجدهم بضدِّ ذلك، ينظرون في حقِّهم على الله، ولا ينظرون في حقِّ الله عليهم، ومن همنا انقطعوا عن الله، وحُجِبَت قلوبُهم عن معرفته ومحبَّته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربِّه ونفسه .

فاعملوا ـ رحمكم الله ـ أن رأس التِّجارة التي لن تبور هو نظر العبد في حقِّ الله، ثم نظره هل قام به كما ينبغي؛ فإن ذلك يسير بالعبد إلى مقامات الصِّدِّيقين الرَّبَّانيين الذين طرحوا قلوبهم بين يدي ربهم ذليلة خاضعة منكسرة كسرًا فيه جبرها، ومفتقرة فقرًا فيه غناها .

فاللهم هذه قلوبنا بين يديك، وأعمالنا لا تخفى عليك؛ فثبت اللهم أفئدتنا على صراطك المستقيم: صراط الذين أنعمت عليهم من النَّبيين، والصِّديقين، والشَّهداء، والصَّالحين، وحسن أولئك رفيقًا .

٢ ـ مذهب السلف الصالح رحمهم الله في مبطلات الأعمال

ذهب فريق من القدريّة ـ إحدى الطّوائف المخالفة لما كان عليه الرسول ﷺ والصّحابة رضي الله عنهم ـ إلى القول: إن السيّئات يبطلنّ الحسنات، فلا ينفع إيمان مع معصية؛ فحكموا على العاصي بحكم الكافر، وأبطلوا عمله، وحكموا عليه بالخلود في نار جهنّم.

وذهب المرجئة ـ إحدى الفرق الضّالّة مثلهم ـ إلى ضِدهم حيث قالوا: لا حذر من المعاصي مع حصول الإيمان.

وجاء مذهب السّلف الصّالح رحمهم الله وسطًا بين إفراط وتفريط حيث قرروا: أن الإحباط الحقيقي ـ إبطال الشيء للشيء، وإذهابه جملة ـ هو إحباط الكفر والشّرك والرِّدَّة والنّفاق للإيمان.

وأن بطلان بعض العبادات بسبب بعض المعاصي، أو نقصان الأجر والثواب بسبب آخر، أو توقيف الانتفاع به في وقت الحاجة إليه، هو إحباط نسبي لا يذهب بأصل الإيمان.

ولذلك فقد قرروا تبعًا للنصوص الصّريحة: أن الإيمان قولٌ وعمل؛ يزيد بالطّاعة، وينقص بالمعصية.

نرجو الله أن يزيد إيماننا بالله ورسوله، وأن يميتنا على الإسلام والسنة، ويلحقنا بالصالحين.

٣ ـ مبطلات الأعمال

١ ـ ٣ ـ الكفر والشِّرك والردَّة والنِّفاق:

اعلم يا مسلم يا عبد الله أنّ من مات وهو كافرٌ أو مشركٌ أو مرتدٌ لا يصحُّ منه التَّقرب بالأفعال الجميلة؛ كالصَّدقة، وصلة الرَّحم، وحفظ الجوار وغيرها؛ لأنَّ من شرط التَّقرُّب أن يكون عارفًا لمن يقترب، والكافر ليس كذلك؛ فعمله محبط.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

ولقد بلغ الخطابُ الإلهي ذروته في تقرير هذه الحقيقة الشَّرعية وهو يخاطب الرسول ﷺ على سبيل التغليظ على أمته، فالرسول ﷺ ـ على شرف منزلته ـ لو أشرك لحبط عمله؛ فكيف أنتم أيها الناس؟! لكنه ﷺ لا يشرك لعلو

مرتبته، ولئن الردة تستحيل منه شرعًا، فهو المعصوم الذي عصمه الله.

قال جلّ وعلا: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى مخبرًا عن الرسل جميعًا صلوات الله عليهم: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

والآيات في الباب كثيرة.

وقال ﷺ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريبٍ فيه، نادى مناد: من كان قد أشرك في عمل عمله لله أحدًا؛ فيطلب ثوابه عنده؛ فإنَّ الله أغنى الأغنياء عن الشِّرك**»(١).

وينبغي معرفة أمور في هذا الباب على وجه الاختصار منها:

أ ـ أن الذين ماتوا على كفرهم، لكنهم عملوا بعض الأمور الحميدة لا **يُضَيِّع الله ذلك عليهم بل يجازيهم عليها في الدنيا.**

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥ـ١٦].

وقال ﷺ: «**إنَّ الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يُعطى بها (وفي رواية: يثاب**

---

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه الترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣)، وأحمد (٤/ ٢١٥)، وابن حبان (٧٣٠١) وغيرهم من طريق محمد بن بكر البرساني عن عبد الحميد بن جعفر أخبرني أبي عن ابن ميناء عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري مرفوعًا.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، ووافقه شيخنا في «تخريج المشكاة» (٥٣١٨).
قلت: وهو كما قالا، وابن ميناء هو زياد، وهو حسن الحديث إن شاء الله، والراوي عنه هو جعفر بن عبد الله، ثقة، وباقي رجاله موثقون.
وله شاهد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه مسلم (٨/ ١١٥ ـ نووي).

عليها) الرزق في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر؛ فيطعم بحسنات ما عمل بها في الدنيا إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها»[١].

ب ـ ومنها أن الكافر إذا أسلم ومات على الإيمان كفَّر الله عنه سيِّئاته، وكتب له حسناته التي عملها في جاهليته، وبذلك جاءت النُّصوص الصَّريحة عن الصَّادق المصدوق ﷺ:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال ﷺ:

«إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب الله له كلَّ حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيِّئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها»[٢].

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: أي رسولَ الله أرأيت أمورًا كنت أتحنَّثُ بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر؟.

فقال رسول الله ﷺ: **«أسلمت على ما أسلفت من خير»**[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرَّحم، ويطعم المساكين، فهل ذاك نافعه؟

قال: «لا يا عائشة إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧/ ١٤٩ ـ ١٥٠ ـ نووي) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) علقه البخاري (١/ ٩٨ ـ الفتح)، ووصله النسائي (٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦) بسند صحيح.
قال الحافظ (١/ ٩٩) «وقد ثبت في جميع الروايات ما سقط من رواية البخاري وهو كتابة الحسنات المتقدمة قبل الإسلام».

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٣٠١ ـ الفتح)، ومسلم (٢/ ١٤٠، ١٤١، ١٤٢ ـ نووي).

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ٨٦ ـ نووي).

فهذا عبد الله بن جدعان الذي كان كثير الإطعام حتى أنه اتخذ للضيفان جفنة يرقى إليها بسلم لم ينفعه ذلك في الآخرة؛ لأنه مات وهو كافر جاحد بيوم البعث والنشور.

هذا هو الحق الذي تقرره الأدلَّة الشَّرعية الصحيحة الكثيرة: أن الكافر إذا أسلم نفعه عمله الصَّالح في الجاهلية، بخلاف إذا مات على كفره؛ فإنه لا ينفعه بل يحبط بكفره، ولكن يجازى على عمله الصالح شرعًا في الدنيا، فلا تنفعه حسناته شيئًا في الآخرة، ولا يخفف عنه العذاب بسببها فضلاً عن أن ينجوَ منه.

فإذا علمت أيها المسلم هذه الحقائق تبين لك خطأ بعض المسلمين الذين يقولون ـ في لحظة غفلة أو جهل ـ إذا رأوا انحرافًا من المسلمين عن الأخلاق الحسنة والخصال الجميلة: النَّصارى واليهود أفضل من هؤلاء؛ ويعنون: الجفاة من المسلمين.

وكذلك قول بعض المسلمين ـ الذين يتألّون على ربِّهم: والله لن يدخل النَّارَ مكتشف البنسلين أو مخترع الهاتف، يكفيه هذه الخدمة العظيمة التي قدمها للبشرية، وخفَّف عنها آلامها.

قلت: ليس بأمانيكم؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهؤلاء الكفار لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً؛ لأنهم أذهبوا طيِّباتهم في الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

٢ ـ ٣ ـ الرياء:[١].

لقد ورد ذمُّ الرِّياء في الكتاب والسُنَّة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ـ٧].

وأما الأحاديث فقد تقدم بعضها في باب الشرك؛ لأن الرِّياء شرك أصغر.

واعلم يا مسلم يا عبد الله: أن الرِّياء مشتق من الرؤية؛ فالمرائي يُري النَّاس ما يطلب به الحظوة عندهم؛ فيكون قد نال حظَّ نفسه من عملها في الدنيا.

والرِّياء أنواع كثيرة، وضروب شتى، وشوائبه وخيمة، وهو محبط للعمل، بذلك نص الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر: الرِّياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى النَّاس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا؛ فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟**»[٢].

وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال: الشِّرك الخفي: أن يقوم الرَّجل فيصلي؛ فيُزَيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل**»[٣].

---

(١) اقتصرت في هذا البحث على نتيجة الرياء، وهي: أنه محبط للعمل، وأما أنواعه وأقسامه؛ فمحلها كتابي «الرياء ذمه وأثره السَّيئ في الأمة».

(٢) صحيح ـ أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والبغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) حسن ـ أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

=

فاحذر أخا الإيمان من الرِّياء؛ فإنّه شرٌّ بلاء يستأصل الأعمال، ويجعلها هباء.

واعلم أخا الإسلام: أن المرائين أوّل ما تسعر النَّار فيهم؛ لأنهم استمتعوا بنتائج أعمالهم في حياتهم الدنيا.

ففر أيها العبد من الرِّياء فرارك من الأسد؛ فإن الرِّياء والشَّهوة الخفيَّة يعجز عن الوقوف أمام غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنَّما يبتلى به العلماء والعباد المشمِّرون عن ساق الجدِّ لسلوك سبيل الآخرة؛ فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشّهوات لم تطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل وتصدر المجالس ونظر النَّاس إليها بعين الإجلال والوقار، فأصابتها لذة عظيمة احتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه من عباد الله المخلصين، وقد أُثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون.

وقد قيل:

وخالف النّفس والشَّيطان واعصمها ... وإن هما محضاك النصح فاتهم

فاللهم رب السموات والأرض طهِّر قلوبنا من النِّفاق، وأعمالنا من الرِّياء، وثبِّتنا على صراطك المستقيم حتى يأتينا اليقين.

٣ ـ ٣ ـ المنّ والأذى:

الإنفاق في سبيل الله من صنائع المعروف التي تُقَرِّبُ العبد إلى ربّه زلفى، وتقي مصارع السّوء.

وقد مدح الله سبحانه وتعالى عباده المنفقين وأثنى عليهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وبهذا البيان القرآني من لدن علاَّم الغيوب تبين أن ثواب الإنفاق إنما هو للمخلص الذي لا يتبع عمله منًّا ولا أذى؛ لأنهما مبطلان لثواب الصدقة؛ كما أخبر مولانا سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فلتحرص يا عبد الله على الإنفاق والإطعام والإعطاء لوجه الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

واعلم أنك إذا أنفقت ابتغاء جزاء من المُنْفَقِ عليه بوجه من الوجوه؛ فإنك لم ترد وجه الله؛ لأنّه إذا أخلف ظنَّك فيه كان منك المنُّ والأذى، وكذلك إذا أنفقت مضطرًا دافع غرمٍ، إما لمنَّة للمنفق عليه، أو لقرينة أخرى من اعتناء معتن أو غيره.

وإنما يتقبل الله من المخلصين الذين كان عطاؤهم لله، قصدهم مرضاة الله، ولم يحبّوا أن يحمدوا بما صنعوا أو يُذكروا بما قدموا؛ لأنهم أيقنوا أن المنّ والأذى يهدم الصَّنيعة، ويبطل ثواب الصَّدقة.

قال ﷺ: «**ثلاثة لا يتقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً: عاق، ومنان، ومكذِّب بالقدر**»(١).

---

(١) حسن ـ أخرجه إبن أبي عاصم في السنة (٣٢٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٤٧) وغيرهم من حديث أبي امامة رضي الله عنه.

=

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذاب أليم**».

قال: فقرأ رسول الله ثلاث مرات.

قال أبو ذر: **خابوا وخسروا** من هم يا رسول الله؟

قال: «**المُسْبِل، والمنّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[١].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنَّان بما أعطى**»[٢].

ولله درُّ القائل: «مَنْ مَنَّ بمعروفه سقط شكره، ومن أُعجب بعمله حبط أجره».

وأنشد بعضهم:

أفسدت بالمنِّ ما أسديت من حسن ... ليس الكريم إذا أسدى بمنان

وقال أبو بكر الورّاق:

أحسنُ من كل حَسَن ... في كلِّ وقت وزمن
صنيعة مربوبة ... خالية من المنن

ومن أصدق من الله حديثاً: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ

= وحسن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٢١)، ووافقه شيخنا في «الصحيحة» (١٧٨٥).
قلت: وهو كما قالا.

(١) مسلم (١٠٦).

(٢) صحيح ـ أخرجه النسائي (٥/ ٨٠ـ٨١)، وأحمد (٢/ ١٣٤)، والحاكم (٤/ ١٤٦ـ١٤٧)، والبيهقي (٨/ ٢٨٨)، والبزار (١٨٧٥) وغيرهم من طرق عن سالم بن عبد الله رضي الله عنه.
قلت: إسناده صحيح.

﴿أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾ [البقرة: ٢٦٣].

٤ ـ ٣ ـ التكذيب بالقدر:

اعلم أيها المؤمن أنه لا يصحُّ إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، رفعت الأقلام، وجفت الصحف بعلم الله بذلك قبل وقوعه وحدوثه وخلق الكون.

ومن كذَّب بذلك فقد حبط عمله، وكان من الخاسرين ولو أنفق ملء الأرض ذهبًا.

قال ﷺ: «**ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً: عاق، ومنّان ومكذب بالقدر**»(١).

وعن زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ قال:

«**لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النّار**»(٢).

ولما ظهر التكذيب بالقدر في أواخر جيل الصحابة رضي الله عنهم هُرِعَ التابعون إلى صحابة النَّبيِّ ﷺ يستفتونهم في هذه النابتة»(٣).

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) صحيح ـ أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٨٥ ـ١٨٩)، والطبراني في «الكبير» (٤٩٩٠)، وابن حبان (١٨١٧ـ موارد)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٥) من طريق ابن الديلمي عنهم به.
قلت: وإسناده صحيح.

(٣) وهذا دليل جليّ من التابعين رحمهم الله على حجيّة منهج السّلف الصالح؛ فإنهم رجعوا إلى =

فكان فصل الخطاب في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عن يحيى بن معمر رحمه الله تعالى قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني؛ فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته[١] أنا وصاحبي؛ أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أنَّ صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنّه ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون: أنه لا قدر، وأن الأمر أنف[٢].

قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برءاء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا؛ فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطَّاب «وساق حديث جبريل الطويل في الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة»[٣].

٥ ـ ٣ ـ ترك صلاة العصر:

أمر الله سبحانه وتعالى عباده مقيمي الصّلاة بالمحافظة عليها، وخصَّ من بينها الصَّلاة الوسطى، وهي صلاة العصر[٤].

= الصحابة عندما ظهرت هذه البدعة؛ ليقفوا على الحجة البينة التي تقصمها.
وقد فصلت القول في حجية منهج السلف الصالح في رسالتي: «لماذا اخترت المنهج السلفي؟»، وكتابي «بصائر ذوي السلف بشرح مرويات منهج السلف»، انظرهما غير مأمور.

(١) أي صرنا في ناحيتيه ذات اليمين وذات الشمال نحف به، وهكذا يكون الأدب مع فضلاء أهل العلم فيا ليت طلاب العلم يفعلون.

(٢) أي مستأنف لم يسبق به قدر، ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه الله بعد وقوعه.

(٣) أخرجه مسلم (٨).

(٤) لحديث علي رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الخندق: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر؛ ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا**».
=

قال سبحانه وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وحذر سبحانه وتعالى من التَّلهي عنهما بمال أو أهل أو عَرض من أعراض الدنيا، وخُصَّ فاعل ذلك بالوعيد الشديد وبخاصة صلاة العصر.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥].

وقال ﷺ «**الذي تفوته صلاة العصر؛ كأنما وتر أهله وماله**»(١).

عن أبي المليح عامر بن أسامة بن عمير الهذلي قال: كنا مع بريدة في غزوة في يوم غيم، فقال: بكروا بصلاة العصر؛ فإن النَّبيِّ ﷺ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»(٢).

٦ - ٣ - التَّألي على الله سبحانه:(٣).

رحمة الله لقد وسعت كلَّ شيء، ومن رحمته: أنه إذا شاء غفر الذنوب بلا توبة تفضلاً منه وإحسانًا.

والله عزَّ وجلَّ لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون، فهو الرّءوف الرّحيم الغفور الودود، ولكن بعض النّاس ممن استدرجهم الشيطان وزيَّن لهم أعمالهم إذا رأوا

= أخرجه البخاري (٨/ ١٤٥ - فتح)، ومسلم (٦٢٧) (٢٠٥).
وهو مذهب أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم.
قال البغوي «في شرح السنة» (٢/ ٢٣٦): وذهب أكثر أهل العلم من الصّحابة فمن بعدهم إلى أنها صلاة العصر».
قلت: وهو المعتمد لصحة الحديث فيه.

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٣٠ - فتح)، ومسلم (٦٢٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٣١، ٦٦).
(٣) أي الحلف بالله على الله أنه لا يغفر لفلان.

بعض الخطايا من بعض النَّاس تراهم يسارعون في القسم؛ فيقولون: والله لا يغفر الله لفلان، وما علم هؤلاء أن قولهم هذا خطيئة تحبط العمل؛ لأنهم قنَّطوا البشر من رحمة ربهم.

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدَّث: «**أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله قال: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**» أو كما قال[١].

واعلموا رحكمم الله: أن تقنيط الإنسان من رحمة الله سبب في ازدياد العاصى في معاصيه، حيث يعتقد أن باب الرَّحمة الإلهية قد أغلق في وجهه؛ فيزداد انحرافًا وعصيانًا؛ ليشبع شهواته قبل أن تخترمه المنية؛ فيعذبه ربُّ البرية عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين.

ألا يستحق من كان مغلاقًا للخير مفتاحًا للشر أن يحبط الله عمله جزاء وفاقًا؟

اللهم اجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر.

٧ ـ ٣ ـ مشاقة الرسول ﷺ قولاً أو عملاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: [حبط عملي و] أنا من أهل النار، واحتبس عن النَّبيِّ ﷺ؛ فسأل النَّبيِّ سعد بن معاذ فقال: «**يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى؟**»، قال سعد: إنه لجاري وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد: فذكر له قول رسول الله ﷺ؛ فقال ثابت: نزلت الآية، ولقد علمتم أنّي من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ؛ فأنا

---

(١) أخرجه مسلم (١٦/ ١٧٤ ـ نووي).

من أهل النّار؛ فذكر ذلك سعد للنَّبيِّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**»[(١)].

وبهذا الحديث يتبين أن رفع الصوت المحبط للعمل هو مشاقته ﷺ ومخالفة أمره وعدم طاعته قولاً أو فعلاً.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣].

٨ ـ ٣ ـ الابتداع في الدين[(٢)]:

واعلموا رحمكم الله: أنه لا بد للمسلم في عبادته من أصلين:

أحدهما: إخلاص الدِّين كله لله وحده لا شريك له.

والآخر: اتباع أمر الله الذي بعث به الرسول ﷺ كما بينه رسول الله ﷺ.

والأمر الذي ينافي هذين الأصلين هو: الابتداع، والاختراع في الدِّين.

والابتداع مبطل للعمل محبط للأجر، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ**»[(٣)]، وفي رواية: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**».

هذا القول النَّبوي يُعَدُّ من أصول الإسلام، وقاعدة من قواعده بل هو شطر الدِّين.

فلذلك ينبغي أن يعتنى بحفظه، واستعماله في إبطال البدع، وإشاعة

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٠، ٨/ ٥٩٠)، ومسلم (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤ ـ نووي) واللفظ له، وما بين معقوفتين زيادة عند البخاري، وأحمد (٣/ ١٣٧).

(٢) انظر لزامًا رسالتي: «البدعة وأثرها السَّيِّئ في الأمة».

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٣٠١)، ومسلم (١٢/ ١٦ ـ نووي)، من حديث عائشة رضي الله عنها. والرواية الثانية لمسلم وغيره.

الاستدلال به كذلك؛ لأنه صريح في ردِّ كلِّ البدع والمخترعات.

وفي الرواية الثانية زيادة وهي: أنه قد يعاند بعض المبتدعين؛ فيقول: أنا لم أحدث وإنما سُبقت؛ فيحتج عليه بالرواية الثانية التي فيها التصريح بردِّ كل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سُبق بإحداثها، والله الموفق.

٣ ـ ٩ ـ انتهاك حرمات الله في السِّر:

عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **لأعلمن أقوامًا من أمتّي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا؛ فيجعلها الله عز وجل هباءً منثورًا.**

قال ثوبان: يا رسول الله صفْهُم لنا، جلِّهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم[١].

قال: «**أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم**[٢]**، ويأخذون من الليل كما تأخذون**[٣]**، ولكنهم أقوام إذا خَلَوا بمحارم الله انتهكوها**»[٤].

اللهم اجعلنا ممن يتقيك في الخلوة والجلوة، ويعظم شعائرك ويجتنب محارمك في السر والعلن، وجنبنا الإثم والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

٣ ـ ١٠ ـ الفرح والسُّرور بقتل المؤمن:

المسلم معصوم الدَّم لا يحلُّ لإنسان أن يسفك دمه إلا بحقِّ الإسلام.
وقد جاءت الآيات الصَّريحة والأحاديث الصَّحيحة في تعظيم حرمة المؤمن،

---

(١) هكذا كان السلف الصالح يخشون أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون؛ فلله درهم، ونسأله أن يجزيهم الجزاء الأوفى.

(٢) من جنسكم.

(٣) لهم نصيب من التهجد والقيام في الليل.

(٤) صحيح ـ أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه بإسناد صحيح رجاله ثقات.
والحديث صححه المنذري، والبوصيري، وشيخنا في «السلسلة الصحيحة» (٥٠٥).

والتَّغليظ فيمن استحلَّ دمه؛ فسفكه، ولم يكن عنده من الله برهان.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال ﷺ: **«من قتل مؤمناً فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»**[١].

وقال ﷺ: **«لا يزال المؤمن معنقًا [٢] صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا، فإذا أصاب دمًا حرامًا بلَّح[٣]»**[٤].

ليس في ملابسات هذه الدنيا الفانية كلها ما من شأنه أن يوهن من علاقة المسلم بأخيه إلى حدّ سفك دمه عمدًا، ومن فعل ذلك فقد قتل هذه الوشائج الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المؤمنين، ونقض عراها الوثيقة التي أسَّسَها رب العالمين؛ فاستحق هذا الوعيد الأكيد والتغليظ الشّديد.

ولذلك؛ فالقاتل العمد قلَّما يوفَّق إلى توبة؛ لقوله ﷺ: **«أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة»**[٥].

وقد اختلف الفقهاء في توبة القاتل العمد؛ فمنهم من قال بتوبته، ومنهم من قال: لا توبة له، والأول أرجح، والله أعلم[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٧٠) وغيره من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
قلت: هو صحيح.
صرفًا ولا عدلاً: نافلة ولا فريضة، وقيل: غير ذلك.

(٢) طويل العنق خفيف الظهر، والمراد: سريع السير إلى الصالحات، وله سوابق في الخير.

(٣) انقطع وأعيا.

(٤) صحيح ـ أخرجه أبو داود (٤٢٧٠) من حديث أبي الدرداء وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما.
قلت: إسناده صحيح. (٥/ ٣٣٢ـ ٣٣٥).

(٥) «السلسلة الصحيحة» (٦٨٩).

(٦) ومن شاء البسط فلينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٥/ ٣٣٢ـ ٣٣٥).

١١ ـ ٣ ـ الإقامة مع المشركين في دار الحرب:

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا نبيَّ الله ما أتيك حتى حلفت أكثر من عددهن[١] ألا آتيك، ولا آتي دينك، وإني كنت امرءًا لا أغفل شيئًا إلا ما علمني الله ورسوله. وإني أسألك بوجه الله بما بعثك ربُّك إلينا؟

قال: «**بالإسلام**» قال: قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: «**أن تقول: أسلمت وجهي إلى الله عز وجل وتخليت، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، كل المسلم على المسلم محرم**[٢]، **وأخوان**[٣]**نصيران، لا يقبل الله عز وجل من مشرك بعد ما أسلم عملاً أو**[٤]**فارق المشركين إلى المسلمين**»[٥].

١٢ ـ ٣ ـ إتيان الكهَّان والعرَّافين:

صناعة التنجيم التي مضمونها الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، والتي يدعي أربابها أنهم يعلمون علم ما وقع وما لم يقع، محرمة بالكتاب والسُّنة واتفاق الأئمة.

وقد حرَّم الإسلام حُلْوان الكاهن، وهو ما يتعاطاه المنجم، وضارب الحصى، والخاطُّ بالرمل، وقارئ الفنجان.

وكذلك حرم الاتصال بهم على كافة الوجوه إلا أن يأتيهم المسلم ناهيًا

---

(١) أصابع يديه.

(٢) حرم الله تعالى على كل مسلم التعرض للمسلم بكل وجه إلا ما أباحه الدليل.

(٣) المسلمان.

(٤) «أو» بمعنى «حتى» أو «إلى أن».

(٥) حسن ـ أخرجه النسائي (٥/ ٨٢ ـ ٨٣)، وابن ماجه (٢٥٣٦) دون المقدمة، وأحمد (٥/ ٤ـ٥)، والحاكم (٤/ ٦٠٠) وصححه ووافقه الذهبي.
قلت: هذا إسناد حسن؛ لأن بهزًا حسن الحديث إن شاء الله كما بينته في رسالتي «الرأي القويم في بهز بن حكيم»، يسر الله طبعها هي وغيرها من رسائلي.

زاجرًا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، كما صنع الرسول ﷺ مع ابن صياد اليهودي.

وقد توعد الرسول ﷺ من أتاهم وسألهم بعدم قبول صلاته أربعين يومًا.

قال ﷺ: «**من أتى عرافًا؛ فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**»(١).

هذا الوعيد لمن أتاهم وسألهم، ولكن الذي يصدقهم فإنه كافر بما أنزل على محمد ﷺ.

قال ﷺ: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا؛ فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»(٢).

أخي المسلم - وفقك الله لما يحبه ويرضاه - هذا حال السائل فكيف المسئول؟!

وإن تعجب يا مسلم يا عبد الله فعجب ادعاء بعض الناس أن ما يفعله هؤلاء الكهان والعرافون كرامات.

إن الكرامة يجريها الله على يد عبده الصّالح، ولا صنع للعبد فيها ولا قدرة بل إنه يكاد يخفيها، أما مُدَّعو الولاية؛ فإنهم يقولون: أوتينا علم الغيب على علم عندنا، وورثناه كابرًا عن كابر.

حذار أيها المسلم أن تأتي الكهان العرافين والمنجمين.

واعلم أن مشركي قريش كانوا في الشدائد يخلصون لله في الدعاء؛ كما

---

(١) أخرجه مسلم (١٤/ ٢٢٧).

(٢) صحيح - أخرجه الترمذي (١٣٥)، وأبو داود (٣٩٠٤)، وابن الجارود (١٠٧)، وأحمد (٢/ ٤٠٨ - ٤٧٦) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت: وهو صحيح.

أخبر الله عنهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ولكن ـ واأسفاه ـ كثيرًا ممن يدعي الإسلام يتركون الله في الشدائد ويولون وجوههم شطر بيوت الكهان، ويلجئون للعرَّافين.

ولله درّ عبد الله بن محمد الأندلسي المالكي القائل في «ملحمته النونية».

لا تتبع علم النجوم فإنه	متعلق بزخارف الكهان
علم النجوم وعلم شرع محمد	في قلب عبد ليس يجتمعان
ألها دليل سعادة أو شقوة	لا والذي برأ الورى وبراني
من قال بالتأثير فهو معطل	للشرع متبع لقول ثاني
إن النجوم على ثلاثة أوجه	فاسمع مقال الناقد الدهقان
بعض النجوم خلقن زينًا للسما	كالدر فوق ترائب النسوان
وكواكب تهدي المسافر في السرى	ورجوم كل مكابر شيطان
لا يعلم الإنسان ما يقضى غدًا	إذ كل يوم ربنا في شان
والله يمطرنا الغيوث بفضله	ولا نوء أنواء ولا دبران
من قال إن الغيث جاء بحمأة أو	صرفة أو كوكب الميزان
فقد افترى إثمًا وبهتانًا	ولم ينزل به الرحمن من سلطان

٣ ـ ١٣ ـ عقوق الوالدين:

لقد أمر الله سبحانه وتعالى بعبادته وتوحيده، وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك في قوله سبحانه: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

كما قرن شكرهما بشكره، فقال جل ثناؤه ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وبر الوالدين هو موافقتهما قولاً وفعلاً في أغراضهما الجائزة لهما شرعًا،

ولكن طاعتهما لا تراعى في الشرك بالله، أو ركوب كبيرة، ولا ترك فريضة على الأعيان، وقد أمر الشارع الحكيم ببرهما، والإحسان إليهما، وحذر من عقوقهما، والتنكر لفضلهما في التربية، وجعل هذه السخيمة من الكبائر، ومن مبطلات الأعمال.

قال ﷺ: «**ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً: عاق، ومنان، ومكذب بالقدر**»(١).

فليحرص المسلم على بر أبويه، والتودد إليهما، وخفض جناح الرحمة لهما، وبخاصة إذا بلغا الكبر.

وليتذكر العبد الصالح شفقة الأبوين وتعبهما في تربيته؛ ليزداد إشفاقًا لهما، وحنانًا عليهما.

واستمع إلى هذه الأبيات التي خرجت من نفس أب رأى عقوق ولده؛ فشعر بمرارة في كبده، فقال:

غذوتك مولودًا ومنتك يافعًا ... تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أَبِتْ ... لسقمك إلا ساهرًا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقت به دوني فعينى تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعِم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتنى حق الجوار ولم تكن ... عليَّ بمال دون مالك تبخل(٢)

---

(١) مضي تخريجه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٦٢ ـ ٦٣) ضمن حديث طويل، ولكن في إسناده ضعف، كما بينه شيخنا في «إرواء الغليل» (٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، ولذلك لم أذكره مرفوعًا.

=

١٤ ـ ٣ ـ الإدمان على الخمر :

الخمر أمُّ الخبائث، ورأس كل خطيئة؛ لأنَّها تحول بين المرء وعقله؛ فينخرط في حبائل الشيطان.

وقد أمر الله في كتابه العزيز باجتنابها، وبيَّن الرسول ﷺ أنها سبب في لعنة الله على كل متعامل معها على أي وجه من الوجوه، لذلك من شربها كان جزاؤه أن يحبط الله عمله بالتدرج إلا أن يتوب توبةً نصوحًا.

قال ﷺ: «**من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال**».

قيل يا أبا عبد الرحمن: وما نهر الخَبال؟ قال: نهر من صديد أهل النار(١).

وما ذلك إلا لأن الإدمان على الخمر يفضي في الغالب إلى استحلالها.

قال ﷺ «**مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن**»(٢).

= وقد ورد هذا الشعر في أشعار الحماسة منسوبًا لأمية بن أبي الصلت، ونسبها التبريزي لابن عبد الأعلى، لأبي العباس الأعمى، والله أعلم.

(١) صحيح ـ أخرجه الترمذي (١٨٦٢) وغيره من حديث عبد الله بن عمر.
وله شاهد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
أخرجه ابن ماجه (٣٣٧٧)، وأحمد (٢/ ٣٥،١٨٩)، والحاكم (٤/ ١٤٦)، وابن حبان (١٣٧٨ ـ موارد).
وقد جاء تفسير نهر الخبال بأنه عصارة أهل النار وصديدهم مرفوعًا.

(٢) حسن بشواهده ـ أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن حبان (١٣٨٩ ـ موارد)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٣) وغيرهم من طرق عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مختصرًا:
أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٢٩)، وابن ماجه (٣٣٧٥) وغيرهما.

=

١٥ ـ ٣ ـ قول الزُّور والعملُ به:

قال ﷺ: «من لم يدع قول الزُّور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[١].

في الحديث دلالة على أن قول الزُّور والعمل به يبطل ثواب الصوم.

٣ ـ ١٦ ـ اقتناء الكلب إلاّ كلب ماشية أو زرع أو صيد:

قال ﷺ: «من أمسك كلبًا ينقص من عمله كل يوم قيراط (وفي رواية: قيراطان) إلا كلب حرث أو كلب ماشية»[٢].

١٧ ـ ٣ ـ العبد الآبق[٣] حتى يعود إلى مواليه[٤]:

= قلت: فيه ضعف يسير؛ فمثله يصلح للاعتبار؛ فالحديث بمجموع شواهده حسن، والله أعلم.

(فائدة):

قال ابن حبان في «صحيحه» (٧/ ٣٦٧): «يشبه أن يكون معنى هذا الخبر من لقي الله مدمن خمر مستحلاً لشربه كعابد وثن لاستوائهما في حالة الكفر».

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٦١ و ١٠/ ٤٧٣ ـ الفتح).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٦٠ ـ الفتح)، (ومسلم (١٠/ ٢٤٠ ـ نووي) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والرواية الثانية لمسلم، وفي الباب عن عبد الله بن عمر وسفيان بن أبي زهير رضي الله عنهم.

(٣) الهارب من سيده من غير خوف ولا كدِّ عمل.

(٤) رُبَّ قائل يَدَّعي أن هذه المسائل لا جدوى من ذكرها؛ لأنه لم يبق للرِّقِّ في المجتمع الإسلامي عين ولا أثر، وبخاصة أن الإسلام منذ البداية عمل على تجفيف منابع الرِّق.

إن عدم وجود الرِّق الآن لا يستلزم شرعًا تعطيل الأحكام الشرعية الخاصة به، وبخاصة أن هذا الفقدان المشار إليه أمر طارئ على المجتمع الإسلامي بسبب تعطيل الجهاد في سبيل الله عز وجل.

وإذا علم أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؛ فالرِّقُّ باقٍ ما قوتل الكفار؛ لأنه أحد أحكام الجهاد الإسلامي في الأسرى وهي: المن، أو الفداء، أو القتل، أو الرِّق، =

١٨ ـ ٣ ـ المرأة الناشز حتى ترجع إلى طاعة زوجها :

قال ﷺ : «**اثنان لا تجاوز صلاتهما رءوسهما عبد أبق من مواليه حتى يرجع إليهم، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع**»(١) .

١٩ ـ ٣ ـ من أمَّ قومًا وهم له كارهون :

قال ﷺ : «**ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم : العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون**»(٢) .

= ومن أدلة بقاء الرق ما جاء في حديث جبريل عليه السلام المشار إليه رقم (٢٢)، وفيه : «أن تلد الأمة ربتها» حيث جعل ذلك من أمارات الساعة وأشراطها؛ فتدبر.

أما دعواهم أن الإسلام دين جاء ليقضي على هذا الأمر؛ فمضاهاة لقول المستشرقين الذين يبتغون الفتنة، وتعطيل أحكام الإسلام.

فياليت شعري هل يقف هؤلاء المفتونون بمدينة الرجل الأبيض «والعم سام» في الغرب لحظة تأمل مع أنفسهم وواقعهم ويتساءلون بينهم : أيها أشد خطرًا وأقبح منظرًا ما تمارسه محبوبتهم الشمطاء أوروبا وأمريكا من استرقاق شعوب بأسرها أم ما فعله الإسلام مع العبيد؟إن استرقاق المسلمين للأسرى خير لهؤلاء الأسرى؛ ليدخلوا في الإسلام حيث يقادون إلى الجنة بالسلاسل، ولكن بعض المسلمين أصبحوا مجرد أبواق لما يأتينا من وراء البحار، فيا ليت قومي يعلمون.

(١) صحيح ـ أخرجه الحاكم (٤/ ١٧٣)، والطبراني في «الصغير» (١/ ١٧٢) من طريق عمر ابن عبيد الطنافسي عن إبراهيم بن مهاجر عن نافع بن عمر مرفوعًا.
قلت : صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير إبراهيم بن مهاجر؛ فقد احتج به مسلم وحده.
وله شاهد من حديث أبي أمامة، وآخر من حديث جابر فيه ضعف واضطراب.

(٢) صحيح لغيره ـ أخرجه الترمذي (٣٦٠) وقال : «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، ووافقه شيخنا في تخريج «مشكاة المصابيح» (١١٢٢).
قلت : وهو كما قال؛ لأن فيه أبا غالب واسمه حزور على الأرجح، وهو حسن الحديث إن شاء الله.
وله شواهد يرتقي بها إلى الصحة.
١ ـ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أخرجه أبو داود (٥٩٣)، وابن ماجه =

قال الترمذي في «سننه» (٢/ ١٩٢):

«وقد كره قوم من أهل العلم أن يؤم الرجل قومًا وهم له كارهون، فإذا كان الإمام غير ظالم؛ فإنَّما الإثم على من كرهه».

ونقل عن منصور (٢/ ١٩٣): فسألنا عن أمر الإمام؟ فقيل لنا: «إنما عنى أئمة ظلمة، فأمَّا من أقام السُّنة؛ فإنما الإثم على من كرهه».

قلت: وبهذا يتبين أن الأمر ليس مرهون بأمزجة وأهواء المصلِّين، وإنما مرهون باتباع السُّنَّة أو مخالفتها.

٢٠ ـ ٣ ـ هجر المسلم لأخيه المسلم دون عذر شرعي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنَّة يوم الإثنين ويوم الخميس؛ فيُغفَرُ لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء.**

فيقال: أَنظروا هذين حتى يصطلحا؛ أَنظروا هذين حتى يصطلحا، أَنظروا هذين حتى يصطلحا»[(١)].

= (٩٧٠) وفيه الإفريقي، وهو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم سيئ الحفظ؛ فمثله يصلح للاعتبار.
٢ ـ حديث جنادة بن أبي أمية الأزدي: أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٧٧) بإسناد حسن إن شاء الله.
٣ ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه ابن ماجه (٩٧١)، وابن حبان (٣٧٧ ـ موارد) وإسناده فيه ضعف؛ لأن عبيدة بن الأسود صدوق ربما دلس؛ ولم يبين السماع، والله أعلم.
٤ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٣٥٨) وضعفه.
قلت: وهو كما قال.

(١) أخرجه مسلم (١٦/ ١٢٢، ١٢٣ ـ نووي).

الخاتمة

رزقنا الله الحسنى وزيادة

أخا الإسلام هذه خصال من مبطلات الأعمال بين يديك، وضررها على دينك لم يعد خافيًا عليك، فاجتنبها وحذّر منها ليرغب قلبك فيما ينفعه في معاشه ومعاده؛ فيصير محبًّا للرُّشد، مبغضًا للبغي، ويعود إلى فطرته التي فطره الله عليها؛ فيتغذى من الإيمان والقرآن والسُّنَّة بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه؛ لأن كل قلب محتاج إلى أن يتربى، لينمو ويزكو ويزيد حتى إذا بلغ أشده اكتمل وصلح.

اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

❊ ❊ ❊

نحو أخلاق السلف (٦)

مكفرات الذنوب

في ضوء الكتاب والسنة




من مشكاة النبوة

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قال الله تعالى: من عَلِمَ أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئًا».

[صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٤٢٠٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمد، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد: فإن العبد لا يخلو من معصية؛ فلا يسلم من هذا النقص أحد من بني آدم، والمعصوم من عصمه الله.

وإنما يتفاوت البشر في المقادير، أما أصل ذلك فلا بد منه، ومن تفقد نفسه وجدها مشحونة بهذا النقص؛ فإذا وفق انبعث منه خوف هجوم الهلاك عليه، وتوجَّع بسبب سلوكه طريق البعد عن الله، فإذا توجع رجع فارًا إلى الله يطلب النجاة من عوادي الذنوب.

عندئذ يجد باب مكفرات الذنوب مفتوحًا على مصراعيه مكتوبًا عليه: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وتكفير الذنوب على ضربين:

الأول: المحو؛ كما في قوله ﷺ: «**وأتبع السّيِّئة الحسنة تمحها**»[(١)].

وهذا هو مقام العفو.

الثاني: التبديل؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ

---

(١) سيأتي تخريجه.

حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهذا هو مقام المغفرة.

ومن تأمل المقامين وجد فرقًا لطيفًا؛ فالمغفرة فيها زيادة إحسان وتفضل على العفو، وكلاهما خير وبشرى.

ألا ما أسمح هذا الدين! وما أيسر منهجه! على كل ما فيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر والنظافة، وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود، والأوامر والزواجر التي غايتها إنشاء نفوس زكية طاهرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

إن هذا الهتاف وهذه التكاليف لا تغفل ضعف الإنسان وقصوره، ولا تتجاوز به حدود طاقته وتركيبه، ولا تتجاهل فطرته، ولا تجهل رغبات نفسه ودروبها الكثيرة.

ومن هنا كان التوازن العجيب بين الطاقة والتكليف، والدوافع والكوابح، والترغيب والترهيب، والأوامر، والزواجر، والتهديد المرعب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق في العفو والمغفرة.

إنه حسب هذا الدين من النفس البشرية أن يخلص توجهها إلى الله، وأن تتبع أثر رسول الله ﷺ... فأما بعد ذلك... فهناك رحمة الله الواسعة.. تجبر النقص.. وتعطف على القصور.. وتقبل التوبة.. وتغفر الذنب.. وتغسل الحوب.. وتفتح الباب أمام العائدين إلى ديارهم وعرينهم إلى الجنة.

قال العالم الرباني شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية رحمه الله:

وأقدم ولا تقنع بعيش منغص ... فما فاز باللذات من ليس يقدم
وإن ضاقت عليك الدنيا ... ولم يك فيها منزل لك يعلم

فحـي علـى جنـات عـدن فـإنهـا — منـازلـك الأولـى وفيهـا المخيـم
ولكننـا سَبْـيُ العـدو فهـل تـرى — نعـود لأوطـاننـا ونسلـم
وقـد زعمـوا أن الغـريـب إذا نـأى — وشطَّـت بـه أوطـانـه فهـو مغـرم
وأي اغتـراب فـوق غـربتنـا التـي — لهـا أَضحـت الأعـداء فينـا تحكـم

والذي نحن بصدده هو جملة من الآيات القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الصحيحة تتبعتها فألفيتها كلها داخلة تحت معنى واحد رائق، وهو العمل بما ورد الوعد فيه بغفران الذنوب، وتكفير السيئات.

وقد رتبتها على الأبواب؛ ليسهل كشفها على الطلاب، وسميتها: «مكفرات الذنوب في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة».

وها نحن نشرع في إيراد ما وعدنا به، وأرجو الله سبحانه أن ينفع به إنه قريب مجيب، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب.

وعلى الله قصد السبيل

وكتبه
أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

ضحى يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولى
سنة ألف وأربعمائة وثمان من هجرة رسول الله محمد ﷺ
في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن من بلاد الشام المحروسة

١ ـ كتاب الإيمان

١ ـ ١ ـ الإسلام:

الأساس المقبول عند الله سبحانه هو الإسلام؛ لأنه رأس الأمر؛ فمن سلك طريقًا غيره فهو من الهالكين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾[آل عمران: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولكن الله برٌّ رحيم لا يرضى لعباده الكفر، فإذا انتهوا قبلهم، وعفا عنهم؛ فهو الغفور الرحيم.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٨ـ٣٩].

وقال ﷺ: «**إذا أسلم العبد؛ فحسن إسلامه كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عنها**»(١).

وقد أثبت هذا القول النَّبوي الكريم حكمًا زائدًا فضلاً من الله ومنَّةً، وهو

---

(١) علقه البخاري (١/ ٩٨ ـ الفتح) دون جملة كتابة الحسنات المتقدمة، ووصله النسائي: (٨/ ١٠٥ـ١٠٦) بسند صحيح.
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: (١/ ٩٩): «وقد ثبت في جميع الروايات ما سقط من رواية البخاري وهو كتابة الحسنات المتقدمة قبل الإسلام».

كتابة الحسنات المتقدمة[١]، وهكذا يكون الجود الإلهي الكريم، والعطاء الرَّبَّاني العظيم.

فوالذي نفسي بيده لا يرغب عن هذا الفضل الكبير إلا من سفه نفسه، واستحوذ عليه الشيطان؛ فأنساه ذكر ربه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٠-١٤].

فيا أيتها البشرية الحائرة في بيداء الشبهات المقفرة فرِّي إلى الله الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ويا أيتها الأهواء الثائرة في سراب الشهوات المنقطعة فيئي إلى ربٍّ جليل، وظِلٍّ ظليل.

أيها الناس قفوا لحظة تأمل وتدبُّر ومراجعة مع هذا النَّبأ العظيم:

عن عبد الرحمن بن شُماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت[٢]؛ فبكى طويلاً، وحوَّل وجهه إلى الجدار؛ فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟

قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاث[٣].

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو متُّ على تلك الحال؛ لكنت من أهل النَّار.

---

(١) انظر رسالتي: «مبطلات الأعمال» المسألة رقم (١)؛ ففيها تفصيل لهذا الحكم.
(٢) حال حضور الأجل.
(٣) أحوال ثلاث؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: ١٩].

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النَّبيَّ ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه.

قال: **فقبضت يدي»**.

قال: «**مالك يا عمرو؟**»

قال: «**أردت أن أشترط**».

قال: «**تشترط بماذا؟**».

قلت: «**أن يغفر لي**».

قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**».

وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ، منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما طقت؛ لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه، ولو مت على تلك الحال؛ لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها؟ فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار؛ فإذا دفنتموني فشنُّوا عليَّ التُّراب شنًّا[١]، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربِّي[٢].

٢ ـ ١ ـ اتِّباع الرَّسول ﷺ:

لقد أرسل الله سبحانه رسله تترى ليخرجوا النَّاس من الظلمات إلى النور.

وأوجب سبحانه وتعالى طاعتهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

---

(١) بالشين المعجمة، هو: الصَّبُّ مفرقًا.
(٢) أخرجه مسلم: (٢/ ١٣٦ـ١٣٩ـ نووي).

بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

ومن سلسلة الرسل الطيبة وركبهم الكريم محمد بن عبد الله ﷺ حظُّنا من النبيين؛ كما أننا حظُّه من الأمم، لذلك لا يصح اتباع إلا اتباعه، ولقد دلَّ القرآن الكريم على وجوب اتباع النَّبيِّ ﷺ بأشكال كثيرة زخرت بها آياته المحكمة:

أ ـ دلت على وجوب الإيمان بالرسول ﷺ:

فقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

لقد قرن الإيمان بالله ورسوله باتباع النبي ﷺ؛ علم أن ذلك شرط لازم لا ينفك عن المرء في جميع أحواله.

ب ـ آيات دلت على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، لأنه لا طاعة لله إلا بطاعة الرّسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ت ـ آيات قرنت الأمر بطاعة الله مع طاعة الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ث ـ آيات جعلت امتثال طاعة الرسول ﷺ سبباً في رحمة الله لعباده.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

جـ - آيات ضمنت الهدى في طاعة الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

واتِّباع الرسول ﷺ يتجلى بأصدق صوره عندما يقتفي المسلم أثر الرسول ﷺ شبرًا بشبر؛ لأنه يعلم يقينًا أن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لم يتركا صغيرة ولا كبيرة في حياة الإنسان إلا أحصاها، من مولده إلى أن ينصب عليه اللَّبِن في لحده.

فمن فعل ذلك فليُبشْر بغفران الذُّنوب، وتكفير السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعندما استمع نفر من الجنِّ إلى رسول الله ﷺ وعلموا أن اتباعه سبب في غفران الذنوب، رجعوا إلى قومهم منذرين:

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

ولذلك ترى المؤمنين الخلَّص يتوسَّلون إلى الله باتباعهم النَّبيِّ ﷺ، ليغفر ذنوبهم، ويكفِّر سيئاتهم، ويختم لهم بالحسنى.

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وهذا النوع من التَّوسُّل ضرب من التوسل الشرعي؛ لأنه توسل بالعمل الصالح(١).

---

(١) وانظر: تفصيل ذلك في: «التوسل والوسيلة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، و«التّوسل أنواعه وأحكامه» لشيخنا الألباني حفظه الله.

يا رب بحبِّنا لنبيّك، واتباعنا لسنَّته قولاً وعملاً ثبِّت قلوبنا على دينك، ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا؛ فانصرنا على القوم الكافرين.

* * *

٢ ـ كتاب الأخلاق

١ ـ ٢ ـ التّوبة النّصوح(١):

اعلم أيها العبد السالك سبيل النجاة أنَّ التوبة أهم قواعد الإسلام، وهي أول منازل السائرين إلى مقام صدق عند مليك مقتدر، وبداية مدارج السالكين إلى الآخرة.

وعلى الرغم من أنها البداية؛ فهي كذلك الوسط والنهاية، فلا ينفك عنها العبد السالك، ولا يفتأ فيها إلى الممات.

وبدايتها ندم يورث عزمًا وقصدًا وعلمًا بأن الذنوب حجاب بين العبد وربّه؛ لأنها ران القلوب؛ فيهرع إلى النجاة والسلامة، ولا منجا من الله إلا إليه، ومن لجأ إلى ربِّه؛ فهو في حمى لا يضام، ولن يعود صغر اليدين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٨].

وقال ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(٢).

---

(١) انظر رسالتي: «التوبة النصوح في ضوء القرآن والأحاديث الصحيحة»؛ و«حادي الروح إلى أحكام التوبة النصوح»، ففيهما بغية المريد، وغاية المستزيد.

(٢) حسن ـ أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣١٠) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٨) من طريق عبد الكريم الجزري عن أبي عبيدة عن أبيه.
قلت: هذا إسناد رجاله ثقات؛ لكنه منقطع بين أبي عبيدة وأبيه وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
وله شاهد من حديث أبي سعيد الأنصاري: أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٩٨).
قلت: إسناده ضعيف؛ لأن فيه مجهولين: يحيى بن أبي خالد، وابن أبي سعيد الأنصاري.
وله شواهد أخر من حديث أنس، وابن عباس، وأسانيدها واهية.
=

فيا أخي بادر بالتوبة قبل أن يحال بينك وبينها ؛ فإن المرء لا يدري ما الله صانع به .

ولله در القائل :

قدِّم لنفسك توبة مرجَّوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النُّفوس ذخر وغنم للمنيب المحسن

٢ ـ ٢ ـ السماحة[١] :

السماحة في الإسلام تتجلى في كل أمر من أوامره ونواهيه : دقيقها وجليلها ؛ فكانت بحقٍّ بعثاً جديدًا للقيم في جوهرها ، وكل مسالكها ، ودروبها ، ونظمها .

ولم تكن السماحة في الإسلام طلاء ذهبيّاً ؛ ليتهافت الناس على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا .

إن السماحة :

طيب في النَّفس عن كرم وسخاء .

وانشراح في الصدر عن نقاء وتقى .

ولين في الجانب عن سهولة ويسر .

وطلاقة في الوجه عن بشاشة وبشر .

= وبالجملة ، فالحديث حسن لغيره وقد حسنه لشواهده ابن حجر ؛ كما في «المقاصد الحسنة» (٣١٣/ ٢٤٩) ، فقال : «بل حسنه شيخنا لشواهده» .
وقال شيخنا الألباني في «الضعيفة» (٢/ ٨٢ـ٨٣/ ٦١٥) : «طرفه الأول حسن بمجموع طرقه» ثم ذكر قول السخاوي الآنف .

(١) انظر رسالتي : «السماحة في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ ففيها مزيد .

وذلَّة على المؤمنين دون هوان.

ومساهلة في التعامل دون غبن وغرر.

وتيسير في الدَّعوة إلى الله دون مجاملة ومداهنة.

وانقياد لدين الله سبحانه دون حرج وإبطاء.

إنها: لُباب الإسلام، وذروة سنام الأخلاق، وأفضل الإيمان.

هذه هي السماحة التي تكفر الذنوب، وتغسل السيئات.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال ﷺ: «**تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم؛ فقالوا: أعلمت من خير شيئًا؟ قال: كنت آمر فتياني أن ينظروا المعسر، ويتجاوزا عن الموسر؛ قال الله سبحانه وتعالى: فتجاوزا عنه**»(١).

٣ ـ ٢ ـ الإحسان بعد الإساءة:

الإنسان مجبول على الشهوات؛ فإذا وقع العبد بحبائل المعصية واجتراح سيئة؛ فليسارع إلى مقابلتها بخصلة حسنة، كأن يقابل الخشونة باللين، والغضب بالكظم، وقس على ذلك مع رعاية المقابلة وتحقق المشاكلة، وذلك أنسب وليس شرطًا لأن المرض يعالج بضده؛ فكل معصية خالطت القلب ظلمتها لا يبددها إلا نور يرتفع إليه بحسنة تضادها.

ومن تفحص هذا المقام لم ير شيئًا أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثة لذنب قديم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٧ ـ «الفتح»).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷺ: **«اتَّقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق النَّاس بخلق حسن»**[(١)].

---

(١) صحيح بشواهده ـ ورد عن جماعة من الصحابة:
١ ـ حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٤/ ٣٥٦)، وأحمد (٥/ ٢٢٨، ٢٣٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٥١٦ـ٥١٧)، والطبراني في «الصغير» (١/ ١٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٧٦)، ووكيع في «الزهد» (١/ ٣١٨)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٥)، وابن جميع الصيداوي في «معجم الشيوخ» (رقم٨٨) من طرق عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون ابن أبي شبيب عن معاذ مرفوعًا.
قلت: ميمون بن أبي شبيب صدوق كثير الإرسال، ومن دونه ثقة كثير الإرسال والتدليس، وهذا الإسناد منقطع؛ لأن ميمونًا لم يسمع من معاذ، فقد نقل الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١٠/ ٣٨٩) «عن عمرو بن علي... وليس يقول في شيء من حديثه سمعت، ولم أخبر أن أحدًا يزعم أنه سمع من الصحابة، وقال أبو داود: لم يدرك عائشة».
قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٧) معلقًا على قول أبي داود: «وحينئذ لم يدرك معاذًا من باب أولى».
لكن للحديث طريق أخرى عن مجاهد عن معاذ: أخرجها أبو بكر البزار الشافعي في «الغيلانيات» (٤/ ٤٨/ أ).
فحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حسن بمجموع طرقه؛ كما قال الذهبي الذي نقل قوله، وأقره المناوي في «فيض القدير» (١/ ١٢٥).
٢ ـ حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: أخرجه الترمذي (٤/ ٣٥٥) وصححه ووافقه ابن العربي في «عارضة الأحوذي» (٨/ ١٥٤)، وأحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والدارمي (٢/ ٣٢٣)، والحاكم (١/ ٥٤) وقال «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وتعقبه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٧) فأصاب، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٧٨)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٦) من طريق عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر مرفوعًا.
قلت: وهذا إسناد منقطع؛ كما بيناه في حديث معاذ.
لكن لبعض الحديث طرق أخرى:
=

٤ ـ ٢ ـ بذل السلام وحسن الكلام:

قال ﷺ: «إنَّ من موجبات المغفرة: بذل السَّلام، وحسن الكلام»(١).

٥ ـ ٢ ـ المصافحة:

قال ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان؛ فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا»(٢).

= أ ـ عن الأعمش عن شمر عن أشياخه عن أبي ذر: أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٠٧).

قال شيخنا الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣/ ٣٦١): «وهذا إسناد حسن رجاله ثقات غير أشياخ شمر فلم يسموا، لكنهم جمع ينجبر الضعف بعددهم؛ كما قال السخاوي في غير هذا الحديث».

٣ ـ حديث أنس رضي الله عنه: أخرجه ابن الأبار في «معجمه» (٥٠ـ٥١).

وعزاه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٨) لابن عبد البر في «التمهيد» بإسناد فيه نظر.

وعزاه السيوطي لابن عساكر.

وقال المناوي في «فيض القدير» (١/ ١٢١): «سنده ضعيف، ورواه الطبراني، وغيره».

٤ ـ وأخرج ابن أبي شيبة في «المصَنَف» (٨/ ٥١٧) عن وكيع عن إسماعيل عن حكيم ابن جابر قال رجل لرجل أوصني قال: «أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

٥ ـ والقرآن الكريم يشهد بوضوح للحديث، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وبالجملة؛ فالحديث صحيح بمجموع ذلك، ولله الحمد من قبل ومن بعد.

(١) أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٢٣)، ومن طريقه القضاعي في «مسند الشهاب» (١١٤٠) حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا أبي قال: أعطانا ابن الأشجعي كتابًا فيه عن سفيان عن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله أي عمل يدخلني الجنة فقال: (فذكره).

قلت: وهو حديث صحيح.

وانظر لزامًا «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٠٣٥).

(٢) صحيح لغيره ـ أخرجه أبو داود (٥٢١٢)، والترمذي (٢٧٢٧)، وابن ماجه (٣٧٠٣)، وأحمد =

٦ ـ ٢ ـ **الإحسان إلى الحيوان والرفق به:**

قال ﷺ: «**بينما رجل يمشي بطريق إذا اشتد عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فشرب وخرج؛ فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني؛ فنزل البئر، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه حتى رقي؛ فسقى الكلب؛ فشكر الله له، فغفر له**».

فقالوا: يا رسول الله وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا؟

فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»[1].

هذه بعض التوجيهات النَّبويّة الكريمة في الرفق بالحيوان.

وفي هذا بيان لبعض المفتونين بأوروبا الكافرة ينطق بالحق وفصل الخطاب: أن الإسلام وضع قواعد للرفق بالحيوان قبل هؤلاء الأوروبيين الكفَّار؛ الذين تلقوها عن المسلمين، وتوسعوا فيها ونظموها، حتى ظنَّها هؤلاء المفتونون من خصوصيات الأوروبيين.

هذه المبادئ الإسلامية جوهرها الرحمة، والرأفة وعدم تحميلها ما لا يطاق، وعدم اتخاذها غرضًا للعب واللهو.

ولكن الكفَّار الذين يزعمون الرفق بالحيوان، وأسسوا جمعيات لهذا الغرض بلغ الرِّفق بالحيوان عندهم درجة هابطة حيث فضلوه على الإنسان.

وفي بعض بلدانهم يتخذونها غرضًا للعب واللهو والعبث، مثل مصارعة

= (٤/ ٢٨٩و ٣٠٣) وغيرهم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
قلت: إسناده ضعيف؛ لأن أبا إسحاق مدلس مختلط.
وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢) بإسناد حسن.
وبالجملة؛ فالحديث صحيح بشاهده، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشيران المنتشرة في بلاد الأندلس الإسلامية سابقًا النصرانية حاليًا(!).

٧ ـ ٢ ـ **اجتناب الكبائر والموبقات:**

اعلم رحمك الله أن المؤمنين الكمَّل يجتنبون كبائر الإثم والفواحش.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣١ـ٣٢].

ولكن العبد لا يسلم من الوقوع في الذنب، ولذلك وعد الله ـ ووعده الحق ـ فقال ـ وقوله الصدق ـ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

المقصود في هذه العجالة: بيان تكفير السيئات وغفران الذنوب متى اجتُنبت الكبائر، وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين.

٨ ـ ٢ ـ **المصائب:**

لا أحد يسلم من آلام النفس، وأمراض البدن، وفقدان الأحبة، وخسران المال.

وهذا لا يخلو منه برٌّ وفاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولكن المؤمن يتلقى هذه المصائب برضى وطمأنينة تفعم قلبه الذي أسلس أعنة قياده لله ربِّ العالمين؛ لأنه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وهذه المصائب تطهّر العبد المؤمن من خطاياه، كما يغسل الثوب الأبيض بالماء والثلج والبرد؛ فيخرج من الابتلاء كيوم ولدته أمه.

وذلك أن الذّنوب لازمة للبشر فمن رحمة الله بعباده أن يتعهدهم بالابتلاء المرة بعد المرة؛ لينقيهم، ويطهرهم، ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على

قلوبهم، ويثبت به الأقدام.

وهذه المصائب دليل رضى ومحبة من الله لعباده، فإن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، وكلما اصلب إيمان المرء وقوي يقينه اشتد بلاؤه، فمن رضي؛ فله الرضى، ومن جزع؛ فعليه السخط.

قال ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه من خطيئة**»(١).

وقال ﷺ: «**إذا ابتلى الله العبد المسلم ببلاء في جسده قال الله: اكتب له صالح عمله الذي يعمله؛ فإن شفاه غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه**»(٢).

عن أبي الشعثاء الصنعاني أنه راح إلى مسجد دمشق وهجَّر بالرواح؛ فلقي شداد بن أوس والصنابحي معه.

فقلت: أين تريدان يرحمكما الله.

قالا: نريد هاهنا إلى أخ لنا مريض نعوده؛ فانطلقت معهما حتى دخلا على

---

(١) صحيح ـ أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، وابن حبان (٦٩٨، ٦٩٩ ـ موارد)، والحاكم (١/ ٤٠، ٤١)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، وغيرهم من طريقين عن سعد بن أبي وقاص وبه مرفوعًا.
قلت: وهو صحيح.
وله شاهد آخر: أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والحاكم (٤/ ٣٠٧) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.
قلت: وهو كما قالا.

(٢) حسن ـ أخرجه أحمد (٣/ ١٤٨، ٢٣٨، ٢٥٨) من طريق حماد بن سلمة عن سنان بن ربيعة عن أنس به.
قلت: وهذا إسناد حسن إن شاء الله؛ لأن سنان بن ربيعة صدوق فيه لين.

ذلك الرجل.

قال: كيف أصبحت؟

قال: أصبحت بنعمة.

فقال له شداد: أبشر بكفَّارات السيئات وحطِّ الخطايا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله عزَّ وجلَّ يقول: إني إذا ابتليت عبدًا من عبادي مؤمنًا؛ فحمدني على ما ابتليته؛ فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الربُّ عزَّ وجلَّ: أنا قيَّدت عبدي وابتليته، واجْرُوا له ما كنتم تُجرون له وهو صحيح»**[1].

* * *

---

(١) حسن ـ أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، والطبراني في «الكبير»(٧١٣٦).
قلت: إسناده حسن، لأن إسماعيل بن عياش ضعيف في غير الشاميين، وشيخه هنا شامي، وهو راشد بن داود الصنعاني؛ نسبة لصنعاء دمشق، وليست صنعاء اليمن.

٣ ـ كتاب الطهارة

١ ـ ٣ ـ الوضوء:

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ؛ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظافره**»[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن؛ فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًا من الذنوب**»[٢].

واعلم أيها المسلم: أن هذه الفضيلة الجليلة لا ينالها إلا من توضأ كما أمره الله، وبيَّنه رسول الله ﷺ. فطبق صفة وضوء النَّبيِّ ﷺ، ودونك البرهان.

١ ـ لقد ورد في حديث عثمان رضي الله عنه الآنف شرطٌ، وهو: إحسان الوضوء، وهذا الشرط ورد أيضًا في عدة أحاديث أُخر منها:

أ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ؛ فأحسن الوضوء، ثم راح؛ فوجد الناس قد صلّوا، أعطاه الله مثل أجر من صلاّها وحضرها لا ينقص ذلك من أجره شيئًا**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٣ ـ نووي).

(٢) اخرجه مسلم (٣/ ١٣٢ـ١٣٣ـ نووي).

(٣) صحيح ـ أخرجه أبو داود (٥٦٤)، والنسائي (٨٥٦) وغيرهما.
قلت: وهو صحيح.

ب ـ حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ؛ فأحسن الوضوء، ثم صلى ركعتين يُقبل عليها بقلبه ووجهه، وجبت له الجنة**»[١].

وفي الباب عن زيد بن خالد الجهني، وعبد الله بن عمر وغيرهم رضي الله عنهم.

٢ ـ وهذا الإحسان لا يكون إلا كما أمر الله؛ كما ورد مفسرًا في عدة أحاديث صحيحة، منها:

حديث أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من توضأ؛ كما أُمر، وصلّى كما أُمر، غُفر له ما تقدم من عمل (وفي رواية: ذنبه)**»[٢].

٣ ـ وأمر الله بيّنهُ أجودَ بيان، وفصّله أحسن تفصيل رسول الله ﷺ في عدة أحاديث منها:

حديث عثمان أنه دعا بوضوء؛ فذكر صفة وضوء النّبي ﷺ، ثم قال: قال رسول الله ﷺ في آخر الحديث: «**من توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قام؛ فصلّى ركعتين لا يحدث فيها نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٣].

---

(١) صحيح ـ أخرجه النسائي (١/ ٩٥).
قلت: وهو صحيح.

(٢) حسن ـ أخرجه النسائي (١/ ٩٠ـ٩١)، وابن ماجه (١٣٩٦)، وابن حبان (١٠٣٩) وغيرهم.
قلت: وهو حسن إن شاء الله.

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٢١٣ـ الفتح)، ومسلم (٣/ ١٠٧ـ١٠٩ نووي) وغيرهم.

٤ ـ كتاب الصلاة

١ ـ ٤ ـ الأذان:

قال ﷺ: «إن المؤذن يُغفر له مدى صوته، ويصدقه كل رطب ويابس سمع صوته، والشاهد عليه له خمس وعشرون درجه»(١).

---

(١) صحيح لغيره ـ ورد من حديث أبي هريرة، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.
حديث أبي هريرة فله عنه طرق:
الأولى: من طريق شعبه عن أبي موسى بن أبي عثمان قال: سمعت أبا يحيى عنه به.
أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩و٤٥٨)، وابن حبان (١٦٦٤)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٧٩ ـ منحة المعبود)، والبيهقي (١/ ٣٩٧) وغيرهم.
قلت: هذا إسناد ضعيف موسى بن أبي عثمان هو: الكوفي، وهو مقبول، وأبو يحيى وهو سمعان الأسلمي، وهو الكوفي مقبول.
الثانية: شعبة عن موسى بن أبي عثمان قال سمعت أبا عثمان قال: سمعت أبا هريرة وذكره. أخرجه أحمد (١/ ٤١١).
قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فإن موسى بن أبي عثمان هو: التبان، وهو يرويه عن أبيه، وهو غير الأول؛ فقد فرق بينهما ابن أبي حاتم، وأقره الحافظ، والقول قولهما، وأبو عثمان: هو عمران التبان، والقلب يطمئن أنه صدوق، والله أعلم.
الثالثة: من طريق معمر عن منصور عن عباد بن أنيس عنه به.
أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٦).
قلت: وهذا إسناد فيه ضعف.
الرابعة: من طريق مجاهد عنه به.
أخرجه البيهقي (٢/ ٤٣١).
الخامسة: من طريق أبي صالح عنه به.
أخرجه البيهقي (٢/ ٤٣١).
قلت: بالجملة، فحديث أبي هريرة بمجموع هذه الطرق حسن إن شاء الله.

=

٢ ـ ٤ ـ الصلاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول ذلك تبقي من درنه؟**».

قالوا: لا يبقى من درنه شيئًا.

قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»(١).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفَّارة لما بينهنَّ ما لم تغش الكبائر**»(٢).

٣ ـ ٤ ـ السجود للواحد المعبود:

وقد أكد الرسول ﷺ هذه الحقيقة بألفاظ منها بيان أفضلية السجود.

قال ﷺ: «**يا أبا فاطمة أكثر من السجود؛ فإنه ليس من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله تبارك وتعالى بها درجة [في الجنَّة، وحطَّ عنه بها خطيئة]**»(٣).

= ٢ـ حديث البراء بن عازب رضي الله عنه:
أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٤) من طريق معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن أبي إسحاق الكوفي عنه به.
قلت: وهذا إسناد فيه ضعف.
وأما حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
أخرجه البيهقي (١/ ٤٣١) من طريق الأعمش عن مجاهد عنه به.
قلت: وهذا إسناد صحيح.
وبذلك يكون الحديث صحيحًا، ولله الحمد والمنَّة على الإسلام والسنة.

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١١ـ الفتح)، ومسلم (٥/ ١٧٠ ـ نووي).
(٢) أخرجه مسلم(٢٣٣).
(٣) صحيح ـ أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٨) واللفظ له، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٧/ ٥٠٨) والزيادة له.
من طريق ابن لهيعة ثنا الحارث بن يزيد عن كثير الأعرج الصدفي قال: سمعت أبا فاطمة وهو =

٤ ـ ٤ ـ المشي إلى بيوت الله للصلاة جماعة :

قال ﷺ : «**صلاة الرجل في جماعة تضعف صلاته في بيته وسوقه خمسًا وعشرين ضعفًا ، وذلك أنه إذا توضأ ؛ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصّلاة لم يخطُ خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلَّى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلاّه : اللهم صلِّ عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة**»(١) .

٥ ـ ٤ ـ التأمين :

وأكد الرسول ﷺ هذه الفضيلة العظيمة بأسلوب آخر حيث نصَّ على أفضلية موافقة الإمام في التأمين ؛ لأنه أهم مظهر إسلامي في صلاة الجماعة ، حيث يتضمن إعلان الدين وإظهار شعائره .

قال ﷺ : «**إذا قال الإمام : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا : آمين ؛ إنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢) .

= معنا بذي الفواري يقول : قال رسول الله ﷺ (وذكره) .
قلت : وهذا إسناد رجاله ثقات ؛ ابن لهيعة صرح بالتحديث ، والرواي عنه عند ابن سعد هو أبو عبد الرحمن المقري أحد العبادلة الذين صحت رواياتهم عنه .
ولكن كثير وهو ابن قليب مصري لا يعرف ؛ كما قال الذهبي ، والحديث محفوظ من رواية كثير بن مرة ؛ كما قال الحافظ في «التهذيب» .
أخرجه ابن ماجه (١٤٢٢) ، والنسائي في الكبري (٩/ ٢٤٠ـ تحفة الأشراف) من طريقين عنه به .
قلت : وكثير بن مرة هو الحضرمي ثقة ؛ فالحديث صحيح ، والحمد لله .
وللحديث شواهد صحيحة عن ثوبان ، وأبي الدرداء ، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم .

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٣١ـ فتح) واللفظ له ، ومسلم (٥/ ١٦٥ـ١٦٦ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٢٦٦ ـ الفتح) واللفظ له ، ومسلم (٤/ ١٢٨ ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فاحرص أخا الإيمان على هذه الصّلوات حيث ينادى بهنَّ؛ فإنَّهُن من سنن الهدى وشعائر التُّقى.

واحذر أن تتوانى في أداء ذلك إلا لعذر؛ فإن صلاة الجماعة فريضة على الأعيان.

وأبشر بالنّور التام يوم القيامة، وغفران الذنوب وتكفير السيئات في الدنيا.

ولكن اعلموا معشر المصلِّين: أن هذه الفضائل المذكورة لا يستحقها إلا من أتى الصلاة؛ فأحسن وضوءها، وأتَّمها، وخشع، وخضع لله رب العالمين؛ كما أمر، وهذا صريح في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: «من توضأ كما أُمر، وصلَّى كما أُمر، غفر له ما تقدم من ذنبه»[(١)].

ولذلك ينبغي على كل مسلم أن يتحرى كيفية صلاة النَّبيِّ ﷺ كأنه بين يديه، ومن شق ذلك عليه؛ فليولِّ وجهه شطر أهل الذكر يسألهم عن ذلك، وليحرص على استماع القول، واتباع أحسنه.

٦ ـ ٤ ـ صلاة الجمعة:

قال: «**من توضأ؛ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة، فاستمع وأنصت غُفر له ما بينه وبين الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسَّ الحصا، فقد لغا**»[(٢)].

٧ ـ ٤ ـ قيام الليل:

المؤمنون الجادّون في طلب الآخرة لا ينامون من الليل إلا قليلاً؛ لأنهم

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٦/ ١٤٦ـ١٤٧ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قول النبي ﷺ: «**وزيادة ثلاثة أيام**» معناه: أن الحسنة بعشر أمثالها؛ الجمعة إلى الجمعة سبعة أيام، وثلاثة أيام زيادة؛ تلك عشرة كاملة، والله يؤتي فضله من يشاء.

نشطون في قيامه؛ فأشرقت وجوههم وَطهُرت قلوبهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٥ـ١٨].

وفي فضل قيام الليل وأثره على سلوك المسلم ومستقبله قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للدّاء من الجسد**»(١).

٨ ـ ٤ ـ قيام رمضان:

رمضان شهر الله المبارك كله قربات لله؛ فنهاره صيام، وليله قيام، وسُحقًا لعبد أدركه ولم يُغفر له.

وقد حثَّ الرسول ﷺ على قيام ليله إيمانًا واحتسابًا فقال: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢).

وقال: «**من يقم ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(٣).

٩ ـ ٤ ـ صلاة التسبيح:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب: «**يا عباس يا عمّاه ألا أعطيك، ألا أمنحك ألا أحبوك ألا أفعل بك عشر**

---

(١) حسن ـ أخرجه الحاكم (١/ ٣٠٨)، وعنه البيهقي (٢/ ٥٠٢) وغيرهم من حديث أبي أمامة.
قلت: وفي إسناده ضعف يسير، ولكنه حسن؛ كما وضحه شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (٤٥٢)؛ فانظره غير مأمور.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٩٢ـ الفتح)، ومسلم (٦/ ٣٩ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٩١ـ الفتح)، ومسلم (٦/ ٤٠و ٤١ ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خصال، إذا أنت فعلت ذلك غفر الله ذنبك أوله وآخره، وقديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته» .

عشر خصال: أن تصلِّي أربع ركعات؛ تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة؛ فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمسة عشر مرة، ثم تركع، فتقولها وأنت راكع عشرًا، ثم ترفع رأسك في الركوع، فتقولها عشرًا، ثم تهوي ساجدًا، فتقولها وأنت ساجد عشرًا، ثم ترفع رأسك من السجود، فتقولها عشرًا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات، إن استطعت أن تصليها كل يوم مرة؛ فافعل، فأن لم تفعل، ففي كل جمعة مرة؛ فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة؛ فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل؛ ففي عمرك مرة»[1] .

---

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه أبو داود (١٢٩٧)، وابن ماجه (١٣٨٧)، وابن خزيمة (١٢١٦)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٤٣ـ٢٤٤)، والحاكم (١/ ٣١٨)، والبيهقي (٣/ ٥١ـ٥٢) وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن بشر بن الحكم عن أبي شعيب موسى ابن عبدالعزيز القنباري عن الحكم بن أبان عن عكرمة عنه به .
قلت: وهذا إسناد لا بأس به إن شاء الله .
وله طرق أخرى عن عبد الله بن عباس، ولكن لا يفرح بها .
وقد تضافرت كلمات أئمة الفن على تحسين الإسناد الأول :
١ ـ قال أبو داود؛ كما في «اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣٩)، و«الترغيب والترهيب» (١/ ٤٦٨): «أصح حديث في صلاة التسبيح حديث ابن عباس هذا» .
٢ ـ قال المنذري في «الترغيب والترهيب»: (١/ ٤٦٨): «وقد روي هذا الحديث من طرق كثيرة، وعن جماعة من الصحابة، وأمثلها حديث عكرمة هذا، وقد صححه جماعة منهم: الحافظ أبو بكر الأجري، وشيخنا أبو محمد عبد الرحيم المصري، وشيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي رحمهم الله تعالى» .
وانظر أيضًا: «مختصر سنن أبي داود» (٢/ ٨٩) .
٣ ـ وقال الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٣/ ٤٧٣): «وهذا حديث صحيح غريب جيد الإسناد والمتن» .
وللحديث شواهد عن جماعة من الصحابة منهم: العباس بن عبد المطلب، والفضل بن =

قال الحافظ بن ناصر الدين الدمشقي :

إذا أردت الثـواب بـالتـرجيـح ... صـل لله سبحـة التسبيـح
إنَّ فيهـا رغـائبًـا وأجـورًا ... ودواء لكـل قلـب جـريـح
فتقـرب بفعلهـا تعـط نيـلاً ... وثـوابًـا يجـلُّ عـن التصـريـح
لا تـدعهـا فـإن فيهـا حـديثًـا ... مـن وجـوه مقـاربًـا للصحيـح
فتمسـك بسنَّـة كيـف جـاءت ... عـن ثقـات عـن الحبيـب المليـح
أحمـد المصطفـى رسـول أميـن ... ومطـاع وسيـد ورجيـح
أفضـل الخلـق رتبـة ومحـلاً ... ومقـالاً معجـزًا للفصيـح
وصـلاة الله تتـرى عليـه مـع ... كـل سـلام مـديـح بمـديـح
مـا تـوالـى الصبـاح مـع جنـح ... ليـل وتـوارى مغيـب فـي ضـريـح

١٠ ـ ٤ ـ الصلاة في المسجد الأقصى المبارك :

المسجد الأقصى من المساجد التي تُشَدُّ الرحال إليها، وتضرب أكباد المطيِّ للتعبُّد فيها؛ فقد حباه الله بفضائل كثيرة، وحسبُك أن تعلم في هذا المقام: أن الصلاة فيه تحطّ الخطايا، وتكفّر الذّنوب.

= العباس، وعبد الله بن عمر، وعلي، وجعفر بن أبي طالب، وأم سلمة وغيرهم.
وإن كان أسانيدها لا تخلو من مقال بل بعضها تالف؛ فإن ما يصلح منها للاستشهاد يشد من عضد حديث عبد الله بن عباس، ولذلك فحديث صلاة التسبيح صحيح لغيره، والله أعلم.
وقد ألف الحفاظ فيه أجزاء مستقلة.
قلت: وقد توسع بعض الناس في هذه الصلاة؛ فألحقوا بها بدعًا ليس لها أصل في الشريعة السمحة منها:
١ ـ تخصيصها بشهر رمضان المبارك، بل إن بعضهم غالى فخصها بليلة السابع والعشرين(!)
٢ ـ صلاتها جماعة.
٣ ـ صلاتها في اليوم أكثر من مرة.
فيا قوم أربعوا على أنفسكم؛ فاتبعوا ولا تبدعوا؛ فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق.

قال ﷺ: **«إن سليمان بن داود صلوات الله عليهما لمّا بنى بيت المقدس سأل الله عزَّ وجلَّ خلالاً ثلاثًا:**

«سأل الله عزَّ وجلَّ حكمًا يصادف حكمه؛ فأوتيه».

«وسأل الله عزَّ وجلَّ مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأوتيه».

«وسأل الله عزَّ وجلَّ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه(١) إلا الصلاة فيه أن يكون الله قد أعطاه ذلك»(٢).

وهذا المسجد المبارك يئن الآن تحت وطأة المغضوب عليهم الذين استولوا مع البقيَّة الباقية من فلسطين المسلمة عام ١٩٦٧م في غفلة من المسلمين عن دينهم.

وهاهم يتباكون... ولكن... ابكوا مُلكًا مضاعًا لم تحافظوا عليه مثل الرجال.

اللهم اجعل فتحه فتحًا مبينًا ونصرًا مؤزرًا قريبًا، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الذي لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

* * *

---

(١) أي حركه ودفعه؛ وفيه دليل تقصد زيارة المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

(٢) صحيح ـ أخرجه النسائي (٢/ ٣٤)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وأحمد (٢/ ١٧٦)، وابن حبان (٦٣٨٦)، والحاكم (٢/ ٤٣٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
قلت: وهو صحيح.

٥ ـ كتاب الجهاد

١ ـ ٥ ـ القتل في سبيل الله.

الجهاد في سبيل الله فرض عين على كل مسلم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالمال وإما باليد؛ فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع حسب قدرته وطاقته وموقعه.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤ـ١٥].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه: ﴿ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة: ١١١].

وأعاضهم عليها: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

وأودع الله سبحانه هذا العقد والوعد أفضل كتبه المنزلة: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [التوبة: ١١١].

وأكده وبشرهم: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

فليتأمل العاقد مع ربّه عقد هذا التبايع، ما أعظم خطره وما أجلَّ أجره؛ فإن الله هو الذي اشترى، والثّمن جنّات النّعيم والفوز المقيم، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيأت لأمر عظيم وخطب جسيم.

ولمّا كثر المدَّعُون طولبوا بإقامة البيِّنة على صحة دعواهم، فلو يعطى الناس بدعواهم لفسدت السموات والأرض وما بينهن.

وتنوَّع المدَّعون بالشهود؛ فقيل لهم: لا تقام البيِّنة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخرت الخلائق كلُّها وثبت أتباع الرّسول في أقواله وأفعاله وهديه وأخلاقه.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعندئذ طولبوا بعدالة البيِّنة وقيل: لا تثبت العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقام المجاهدون؛ فقيل لهم: إن نفوس المؤمنين وأموالهم ليست لهم؛ فسلّموا ما وقع عليه العقد، وعقد التَّبايع يوجب التسليم من الجانبين.

فلمّا رأى التُّجار عظمة المشتري وقدر الثمن عرفوا أنّ للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرهم من السِّلع؛ فرأوا من الخسران البَين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، ولذّات محدودة، تبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك إنسان سَفِهَ نفسه، واستخفّ قدر ربِّه.

فعقدوا مع الذي اشترى سبحانه بيعة الرّضوان رضى واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تمَّ العقد وسلَّموا المبيع قيل لهم: قوموا مغفورًا لكم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

قال ﷺ: **«القتل في سبيل الله يكفِّر كل شيء إلا الدَّين»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤/ ٣٠ـ نووي) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

عن أبي قتادة: أن رجلاً قام، فقال: يا رسول الله إن قتلت في سبيل الله تكفَّر عني خطاياي؟

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم إن قُتلت في سبيل الله وأنت صابر مُحْتَسِب مُقْبل غير مدبر**».

ثم قال رسول الله ﷺ: «**كيف قلت؟**».

قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفَّر عني خطاياي؟.

قال رسول الله ﷺ: «**نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّين؛ فإن جبريل قال لي ذلك**»[(١)].

لقد حرك الدّاعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبيَّة والهِمم العالية:

فحيِّهلا إن كنت ذا همَّة فقد حدا بك حادي الشَّوق فاطو المراحلا.

فهيئ أخا الإيمان نفسك:

قد هيَّؤوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

واعلم أن سلعة الله غالية، وأن مهرها بذل النفس والنفيس لمالكها الذي اشتراهما من المؤمنين.

وايم الله إنَّها ما هزلت حتى يستامها المفلسون المعرضون الجبناء، وما كسدت حتى يبتاعها نسيئة المعسرون.

لقد أقيمت للعرض في السوق لمن يريد، وقيل: هل من مزيد؟ ولم يرض ربُّها لها بثمن دون بذل حبل الوريد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣/ ٢٨-٢٩- نووي).

٦ ـ كتاب الصوم

١ ـ ٦ ـ صيام رمضان:

قال ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

٢ ـ ٦ ـ صيام يوم عرفة وعاشوراء:

قال ﷺ: «ثلاث من كل شهر، ورمضان إلي رمضان: فهذا صيام الدَّهر كلّه، صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفِّر السَّنة التي قبله والسَّنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبلها»(٢).

* * *

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩٢ـ الفتح)، ومسلم (٦/ ٤٠ ـ نووي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٧/ ٥٠ـ نووي) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

٧ ـ كتاب الحجّ

١ ـ ٧ ـ الحج والعمرة:

قال ﷺ: **«تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب؛ كما ينفي الكير خبث الحديد»**(١).

وقد جاء هذا الفضل العظيم مفصَّلاً على لسان الرسول الكريم ﷺ:

«أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام؛ فإن لك بكل وطأة تطأها راحلتك يكتب الله لك بها حسنة، ويمحو عنك بها سيئة».

«وأما وقوفك بعرفة؛ فإن الله عزَّ وجلَّ ينزل إلى السماء الدنيا؛ فيباهي بهم الملائكة؛ فيقول: عبادي جاءوني شعثاً غبرًا من كلِّ فج عميق يرجون رحمتي ويخافون عذابي ولم يروني، كيف لو رأوني؟! فلو كان عليك مثل رمل عالج أو مثل أيام الدنيا أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها عنك.

وأما رميك الجمار؛ إنه مذخور لك.

وأما حلقك؛ فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة.

---

(١) صحيح ـ أخرجه النسائي (٥/ ١١٥) والطبراني في «الكبير» (١١١٩٦) وغيرهما من طريق سهل بن حماد أبو عتاب الدلائل ثنا عزرة بن ثابت عن عمرة بن دينار قال: قال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: فذكره.
قلت: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.
وللحديث شواهد عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وجابر ابن عبد الله، وغيرهم، رضي الله عنهم.

فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك»[١].

* * *

(١) صحيح - أخرجه الطبراني في الكبير» (١٣٥٦٦)، والبزار في «كشف الأستار» (١٠٨٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٨٨٣٠).
كلهم من طريق مجاهد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما به.
قلت: وهو صحيح.
وله شاهد من حديث أنس: أخرجه البزار (١٠٨٣).
قلت: وفيه ضعف.
وبالجملة؛ فالحديث صحيح.

٨ ـ كتاب الزكاة

١ ـ ٨ ـ الصَّدقات:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

* * *

٩ ـ كتاب الحدود

١ ـ ٩ ـ إقامة الحدود:

قال ﷺ: «أيُّما عبد أصاب شيئًا مما نهى الله عنه ثم أقيم عليه حدُّه كُفِّر عنه الذنب»[1].

---

(١) صحيح لغيره ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٣٨٨)، والدارمي (٢/ ١٨٢)، وأحمد (٥/ ٢١٤و ٢١٥) وغيرهم.
قلت: وإسناده صحيح؛ لأن أسامة بن زيد الليثي فيه كلام يسير لا يضر.
وللحديث شواهد كثيرة في «الصحيحين» وغيرهما، وهو بها صحيح إن شاء الله.

١٠ـ كتاب الأذكار

١ ـ ١٠ ـ ذكر الله:

قال ﷺ: **«ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم منادٍ من السماء: أن قوموا مغفور لكم؛ قد بُدلت سيئاتكم حسنات»**(١).

وقال ﷺ: **«إنَّ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر تنفض الخطايا؛ كما تنفض الشجرة ورقها»**(٢).

٢ ـ ١٠ ـ كفارة المجلس:

إذا اجتمع فئام من المسلمين؛ فينبغي عليهم أن يديروا مجلسهم ضمن حدود الله؛ فلا يتعدوها بأن تكون مادة حديثهم اللعب واللهو، ونهش لحوم إخوانهم، وكشف عوراتهم، وتتبع هفواتهم.

بل يجب أن يتعاونوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، ويتدارسوا كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنَّة رسوله ﷺ.

فعلى كل مسلم يريد الله والدار الآخرة أن يتنبه لذلك، ولا يغفل عن ذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله في كل مجلس يقعده، وإلا كان عليه ترَّة

---

(١) حسن ـ أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢) حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ميمون المرئي حدثنا ميمون بن سياه عن أنس به.
قلت: وهذا إسناد حسن ـ إن شاء الله ـ وميمون بن موسى المرئي مدلس؛ لكنه صرح بالحديث.

(٢) حسن ـ أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٤) من طريق عبد الوارث حدثنا سنان حدثنا أنس به.
قلت: وهذا إسناد حسن؛ لأن سنان بن ربيعة صدوق؛ فيه لين.

وحسرة وندامة يوم القيامة، وإن دخل الجنة.

قال ﷺ: **«ما من قوم جلسوا مجلسًا لم يذكروا الله فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة»**(١).

وقال ﷺ: **«ما قعد قوم مقعدًا لم يذكروا الله فيه عزَّ وجلَّ، ويصلوا على النَّبيِّ ﷺ، إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة، وإن دخلوا الجنة»**(٢).

ولكن النسيان آفة البشر، والنقص من لوازمهم؛ فإذا لم يستطع الإنسان المسلم في مجلس أن يراعي ما يجب عليه؛ فلا ينسى قبل قيامه أن يردد كفارة المجلس؛ كما علمه رسول الله ﷺ:

«من قال سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارة له»(٣).

---

(١) صحيح ـ أخرجه أحمد (٢/ ١٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.
قلت: وإسناده صحيح.
وله شاهد من حديث جابر رضي الله عنه: أخرجه الطيالسي (١٥٧٦) وإسناده صحيح.

(٢) صحيح ـ أخرجه أحمد (٢/ ٤٦٣)، وابن حبان (٢٣٢٢ ـ موارد) والحاكم (١/ ٤٩٢) وغيرهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا.
قلت: وإسناده صحيح.

(٣) صحيح ـ أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٤٢٤)، والحاكم (١/ ٥٣٧)، والطبراني في الكبير (١٥٨٦ و١٥٨٧) و «الدعاء» (١٩١٩) من طريق نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعًا.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي وشيخنا الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٨١).

وهو كما قالوا.

قلت: وعند الطبراني في الموطن الثاني زيادة «يقولها ثلاث مرات».

* * *

= قال شيخنا حفظه الله: «وقد سكت عليها الهيثمي وليس بجيد؛ فإن في سندها خالد بن يزيد العمري وقد كذبه أبو حاتم ويحيى وقال ابن حبان: يروى الموضوعات عن الأثبات. . فهذه زيادة واهية لا يلتفت إليها».

قلت: هذه وهلة من الشيخ حفظه الله؛ فإن الهيثمي رحمه الله أشار إلى ذلك في الموطنين الذي أحال إليهما الشيخ حفظه الله؛ فقال في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٢): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن يزيد العمري، وهو ضعيف».

وقال (١٠/ ٤٢٣) بعد ذكره الروايتين الصحيحة والضعيفة: «رواه كله الطبراني، ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح» ثم أشار إلى تقدم طرق الحديث في الأذكار.

وبهذا يتبين أن الهيثمي رحمه الله لم يسكت على هذه الروا ية، وإنما ضعفها من قبل؛ كما ضعفها شيخنا أعانه الله لخدمة السُّنة النَّبوية؛ فهي زيادة تالفة كما قالا؛ فالقول قولهما.

الخاتمة

«رزقنا الله الحسنى وزيادة»

فاعلم يا مسلم يا عبد الله : أن مثل هذه الآيات والأحاديث التي تحث على أعمال متضمنة لغفران الذنوب ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها ؛ فيطلق لنفسه العنان في مقارفة الذنوب وارتكاب السيئات، ويظنُّ هذا المسكين أنه قد عمل عملاً ضمن تكفير خطاياه كلها .

إن هذا التصور في غاية الجهل والحمق، فما يدريك أيها المخدوع : أن الله تقبَّل عملك ؛ فغفر ذنوبك؟ .

إن الله سبحانه يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

هؤلاء المتقون يعملون الصالحات، ويجتهدون في الطاعات، ويجتنبون السيئات، ومع ذلك يخشون أن ترد عليهم أعمالهم وتضرب في وجوههم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ـ٦٠] .

نعم هؤلاء هم المؤمنون حقًّا(١) .

---

(١) وقد أوعبت في بيان هذا المقام في رسالتي : «مبطلات الأعمال» تحت عنوان : «خوف السلف الصالح رحمهم الله من أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون» .

ولهذا المعنى العظيم أشار رسول الله الكريم ﷺ في حديث عثمان رضي الله عنه في صفة وضوء النبي ﷺ فقال: «**من توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتى المسجد، فركع ركعتين، فغفر له ما تقدم من ذنبه، ولا تغتروا**»(١).

واعلم أيضًا أيها الأخ أن الذنوب المتعلقة بحقوق الآدميين لا تشملها هذه الآيات والأحاديث بل يجب إرجاعها إلى أهلها بدليل الحديث الذي بَيَّنَ تكفير ذنوب الشهيد إلا الدَّين(٢).

فاحذر أيها الأخ ـ أيدك الله بروح منه ـ واعلم أن مدارج الشيطان كثيرة، ومصائده كبيرة؛ فإياك أن يدخل عليك من هذا الباب.

سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مضى تخريجه.

فهرس الموضوعات

الحب والبغض في الله في ضوء الكتاب والسنة

الصبر الجميل في ضوء الكتاب والسنة

التواضع في ضوء الكتاب والسنة

مبطلات الأعمال في ضوء الكتاب والسنة

مكفرات الذنوب في ضوء الكتاب والسنة

الاعتصام

تأليف

أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي

المتوفى ٧٩٠هـ

تحقيق

سليم بن عيد الهلالي

طبعة مصححة

دار ابن عفان

دار ابن القيم